كتاب الفقر والزهد

الفهرست:

في الفقر

في الزهد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي تسبح له الرمال، وتسجد له الظلال، وتتدكدك من هيبته الجبال، خلق الإنسان من الطين اللازب والصلصال، وزين صورته بأحسن تقويم وأتم اعتدال، وعصم قلبه بنور الهداية عن ورطات الضلال، وأذن له في قرع باب الخدمة بالغدو والآصال، ثم كحل بصيرة المخلص في خدمته بنور العبرة حتى لاحظ بضيائه حضرة الجلال، فلاح له من البهجة والبهاء والكمال، ما استقبح دون مبادي إشراقه كل حسن وجمال، واستثقل كل ما صرفه عن مشاهدته وملازمته غاية الاستثقال، وتمثل له ظاهر الدنيا في صورة امرأة جميلة تميس وتختال، وانكشف له باطنها عن عجوز شوهاء عجنت من طينة الخزي وضربت في قالب النكال، وهي متلفلفة بجلبابها لتخفي قبائح أسرارها بلطائف السحر والاحتيال، وقد نصبت حبائلها في مدارج الرجال، فهي تقتنصهم بضروب المكر والاغتيال، ثم لا تجتزئ معهم بالخلف في مواعيد الوصال، بل تقيدهم مع قطع الوصال بالسلاسل والأغلال، وتبليهم بأنواع البلايا والأنكال، فلما انكشف للعارفين منها قبائح الأسرار والأفعال، زهدوا فيها زهد المبغض لها فتركوها وتركوا التفاخر والتكاثر بالأموال، وأقبلوا بكنه هممهم على حضرة الجلال، واثقين منها بوصال ليس دونه انفصال، ومشاهدة أبدية لا يعتريها فناء ولا زوال، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الأنبياء وعلى آله خير آل.

أما بعد فإن الدنيا عدوة لله عز وجل بغرورها ضل من ضل، وبمكرها زل من زل، فحبها رأس الخطايا والسيئات، وبغضها أم الطاعات وأس القربات. وقد استقصينا ما يتعلق بوصفها وذم الحب لها في كتاب ذم الدنيا من ربع المهلكات، ونحن الآن نذكر فضل البغض لها والزهد فيها فإنه رأس المنجيات، فلا مطمع في النجاة إلا بالانقطاع عن الدنيا والبعد منها لكن مقاطعتها إما أن تكون بانزوائها عن العبد ويسمى ذلك فقراً، وإما بانزواء العبد عنها ويسمى ذلك زهداً، ولكل واحد منهما درجة في نيل السعادات وحظ في الإعانة على الفوز والنجاة، ونحن الآن نذكر حقيقة الفقر والزهد ودرجاتهما وأقسامهما وشروطهما وأحكامهما ونذكر الفقر في شطر من الكتاب والزهد في شطر آخر منه، ونبدأ بذكر الفقر فنقول:

الشطر الأول من الكتاب

في الفقر

وفيه بيان حقيقة الفقر، وبيان فضيلة الفقر مطلقاً، وبيان خصوص فضيلة الفقراء، وبيان فضيلة الفقر على الغنى، وبيان أدب الفقر في فقره، وبيان أدبه في قبوله العطاء، وبيان تحريم السؤال بغير ضرورة، وبيان مقدار الغنى المحرم للسؤال، وبيان أحوال السائلين، والله الموفق بلطفه وكرمه.

بيان حقيقة الفقر واختلاف أحوال الفقير وأساميه

اعلم أن الفقر عبارة عن فقد ما هو محتاج إليه، أما فقد ما لا حاجة إليه فلا يسمى فقراً، وإن كان المحتاج إليه موجوداً مقدوراً عليه لم يكن المحتاج فقيراً، وإذا فهمت هذا لم تشك في أن كل موجود سوى الله تعالى فهو فقير لأنه محتاج إلى دوام الوجود في ثاني الحال ودوام وجود مستفاد من فضل الله تعالى وجوده؛ فإن كان في الوجود موجود ليس وجوده مستفاد له من غيره فهو الغني المطلق، ولا يتصور أن يكون مثل هذا الموجود إلا واحداً، فليس في الوجود إلا غني واحد، وكل من عداه فإنهم محتاجون إليه ليمدوا وجودهم بالدوام، وإلى هذا الحصر الإشارة بقوله تعالى " والله الغني وأنتم الفقراء " هذا معنى الفقر مطلقاً، ولكننا لسنا نقصد بيان الفقر المطلق بل الفقر من المال على الخصوص، وإلا ففقر العبد بالإضافة إلى أصناف حاجاته لا ينحصر، لأن حاجاته لا حصر لها. ومن جملة ما يتوصل إليه بالمال، وهو الذي نريد الآن بيانه فقط، فنقول: كل فاقد للمال فإنا نسميه فقيراً بالإضافة إلى المال الذي فقده إذا كان ذلك المفقود محتاجاً إليه في حقه، ثم يتصور أن يكون له خمسة أحوال عند الفقر ونحن نميزها ونخصص كل حال باسم لنتوصل بالتمييز إلى ذكر أحكامها: الحالة الأولى وهي العليا: أن يكون بحيث لو أتاه المال لكرهه وتأذى به وهرب من أخذه مبغضاً له ومحترزاً من شره وشغله وهو الزهد، واسم صاحبه الزاهد.

الثانية: أن يكون بحيث لا يرغب فيه رغبة يفرح لحصوله ولا يكرهه كراهة يتأذى بها ويزهد فيه لو أتاه، وصاحب هذه الحالة يسمى راضياً.

الثالثة: أن يكون وجود المال أحب إليه من عدمه لرغبة له فيه ولكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه، بل إن أتاه صفواً عفواً أخذه وفرح به، وإن افتقر إلى تعب في طلبه لم يشتغل به، وصاحب هذه الحالة نسميه قانعاً، إذ قنع نفسه بالموجود حتى ترك الطلب مع ما فيه من الرغبة الضعيفة.

الرابعة: أن يكون تركه الطلب لعجزه، وإلا فهو راغب فيه رغبة لو وجد سبيلاً إلى طلبه ولو بالتعب لطلبه، أو هو مشغول بالطلب وصاحب هذه الحالة نسميه بالحريص.

الخامسة: أن يكون ما فقده من المال مضطراً إليه كالجائع الفاقد للخبز والعاري الفاقد للثوب، ويسمى صاحب هذه الحالة مضطراً كيفما كانت رغبته في الطلب إما ضعيفة أو قوية، وقلما تنفك هذه الحالة عن الرغبة. فهذه خمسة أحوال: أعلاها الزهد والاضطرار إن انضم إليه الزهد وتصور ذلك فهو أقصى درجات الزهد كما سيأتي بيانه، ووراء هذه الأحوال الخمسة حالة هي أعلى من الزهد وهي أن يستوي عنده وجود المال وفقده؛ فإن وجده لم يفرح به ولم يتأذ، وإن فقده فكذلك، وإن فقده فكذلك، بل حاله كما كان حال عائشة رضي الله تعالى عنها إذ أتاها مائة ألف درهم من العطاء فأخذتها وفرقتها من يومها فقالت خادمتها: ما استطعت فيما فرقت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحماً نفطر عليه، فقالت: لو ذكرتيني لفعلت، فمن هذا حاله لو كانت الدنيا بحذافيرها في يده وخزائنه لم تضره، إذ هو يرى الأموال في خزانة الله تعالى لا في يد نفسه، فلا يفرق بين أن تكون في يده أو في يد غيره، وينبغي أن يسمى صاحب هذه الحالة المستغني، لأنه غني عن فقد المال ووجوده جميعاً، وليفهم من هذا الاسم معنى يفارق اسم الغني المطلق على الله تعالى وعلى كل من كثر ماله من العباد، فإن كثر ماله من العباد وهو يفرح به فهو فقير إلى بقاء المال في يده، وإنما هو غني عن دخول المال في يده لا عن بقائه، فهو إذن فقير من وجه، وأما هذا الشخص فهو غني عن دخول المال في يده وعن بقائه في يده وعن خروجه من يده أيضاً، فإنه ليس يتأذى به ليحتاج إلى إخراجه، وليس يفرح به ليحتاج إلى بقائه. وليس فاقداً له ليحتاج إلى الدخول في يده، فغناه إلى العموم أميل، فهو إلى الغنى الذي هو وصف الله تعالى أقرب، وإنما قرب العبد من الله تعالى بقرب الصفات لا بقرب المكان، ولكنا لا نسمي صاحب هذه الحالة غنياً بل مستغنياً، ليبقى الغني اسماً لمن له الغنى المطلق عن كل شيء. وأما هذا العبد فإن استغنى عن المال وجوداً أو عدماً فلم يستغن عن أشياء أخر سواه ولم يستغن عن مدد توفيق الله له ليبقى استغناؤه الذي زين الله به قلبه، فإن القلب المقيد بحب المال رقيق والمستغني عنه حر، والله تعالى هو الذي أعتقه من هذا الرق فهو محتاج إلى دوام هذا العتق، والقلوب متقلبه بين الرق والحرية في أوقات متقاربة، لأنها بين إصبعين من أصابع الرحمن، فلذلك لم يكن اسم الغني مطلقاً عليه مع هذا الكمال إلا مجازاً. واعلم أن الزهد درجة هي كمال الأبرار وصاحب هذه الحالة من المقربين، فلا جرم صار الزهد في حقه نقصاناً، إذ حسنات الأبرار سيئات المقربين، وهذا لأن الكاره للدنيا مشغول بالدنيا، كما أن الراغب فيها مشغول بها، والشغل بما سوى الله تعالى حجاب عن الله تعالى، إذ لا بعد بينك وبين الله تعالى حتى يكون البعد حجاباً، فإنه أقرب إليك من حبل الوريد، وليس هو في مكان حتى تكون السماوات والأرض حجاباً بينك وبينه، فلا حجاب بينك وبينه إلا شغلك بغيره، وشغلك بنفسك وشهواتك شغل بغيره، وأنت لا تزال مشغولاً بنفسك وبشهوات نفسك فكذلك لا تزال محجوباً عنه، فالمشغول بحب نفسه مشغول عن الله تعالى، والمشغول ببغض نفسه أيضاً مشغول عن الله تعالى بكل ما سوى الله، مثاله مثال الرقيب الحاضر في مجلس يجمع العاشق والمعشوق، فإن التفت قلب العاشق إلى الرقيب وإلى بغضه واستثقاله وكراهة حضوره فهو في حال اشتغال قلبه ببغضه مصروف عن التلذذ بمشاهدة معشوقه، ولو استغرقه العشق لغفل عن غير المعشوق ولم يلتفت إليه، فكما أن النظر إلى غير المعشوق لحبه عند حضور العاشق شرك في العشق ونقص فيه فكذا النظر إلى غير المحبوب لبغضه شرك فيه ونقص، ولكن أحدهما أخف من الآخر، بل الكمال في أن لا يلتفت القلب إلى غير المحبوب بغضاً وحباً، فإنه كما لا يجتمع في القلب حبان في حالة واحدة فلا يجتمع أيضاً بغض وحب في حالة واحدة؛ فالمشغول ببغض الدنيا غافل عن الله كالمشغول بحبها، إلا أن المشغول بحبها غافل وهو في غفلته سالك في طريق البعد، والمشغول ببغضها غافل وهو في غفلته سالك في طريق القرب، إذ يرجى له أن ينتهي حاله إلى أن تزول هذه الغفلة وتتبدل بالشهود، فالكمال له مرتقب لأن بغض الدنيا مطية توصل إلى الله فالمحب والمبغض كرجلين في طريق الحج مشغولين بركوب الناقة وعلفها وتسييرها، ولكن أحدهما مستقبل الكعبة والآخر لها فهما، سيان بالإضافة إلى الحال في أن كل واحد منهما محجوب عن الكعبة ومشغول عنها، ولكن حال المستقبل محمود بالإضافة إلى المستدبر إذ يرجى له الوصول إليها، وليس محموداً بالإضافة إلى المعتكف في الكعبة الملازم لها الذي لا يخرج منها حتى يفتقر إلى الاشتغال بالدابة في الوصول إليها، فلا ينبغي أن تظن بغض الدنيا مقصود في عينه، بل الدنيا عائق عن الله تعالى، لا وصول إليه إلا بدفع العائق، ولذلك قال أبو سليمان الداراني رحمه الله: من زهد في

الدنيا واقتصر عليه فقد استعجل الراحة، بل ينبغي أن يشتغل بالآخرة؛ فبين أن سلوك طريق الآخرة وراء الزهد كما أن سلوك طريق الحج وراء دفع الغريم العائق عن الحج، فإذن قد ظهر أن الزهد في الدنيا إن أريد به عدم الرغبة في وجودها وعدمها فهو غاية الكمال، وإن أريد به الرغبة في عدمها فهو كمال بالإضافة إلى درجة الراضي والقانع والحريص، ونقصان بالإضافة إلى درجة المستغني، بل الكمال في حق المال أن يستوي عندك المال والماء، وكثرة الماء في جوارك لا تؤذيك بأن تكون على شاطئ البحر، ولا قلته تؤذيك إلا في قدر الضرورة، مع أن المال محتاج إليه كما أن الماء محتاج إليه فلا يكون قلبك مشغولاً بالفرار عن جوار الماء الكثير ولا يبغض الماء الكثير، بل تقول: أشرب منه بقدر الحاجة وأسقي منه عباد الله بقدر الحاجة ولا أبخل به على أحد، فهكذا ينبغي أن يكون المال؛ لأن الخبز والماء واحد في الحاجة، وإنما الفرق بينهما في قلة أحدهما وكثرة الآخر، وإذا عرفت الله تعالى ووثقت بتدبيره الذي دبر به العالم: علمت أن قدر حاجتك من الخبز يأتيك لا محالة ما دمت حياً كما يأتيك قدر حاجتك من الماء، على ما سيأتي بيانه في كتاب التوكل إن شاء الله تعالى.

قال أحمد بن أبي الحواري: قلت لأبي سليمان الداراني: قال مالك بن دينار للمغيرة: اذهب إلى البيت فخذ الركوة التي أهديتها لي فإن العدو يوسوس لي أن اللص قد أخذها، قال سليمان: هذا من ضعف قلوب الصوفية: قد زاده في الدنيا ما غلبه من أخذها، فبين أن كراهية كون الركوة في بيته التفات إليها سببه الضعف والنقصان. فإن قلت: فما بال الأنبياء والأولياء هربوا من المال ونفروا منه كل النفار؟ فأقول: كما هربوا من الماء على معنى أنهم ما شربوا أكثر من حاجاتهم ففروا عما وراءه ولم يجمعوه في القرب والروايا يدبرونه مع أنفسهم، بل تركوه في النهار والآبار والبراري للمحتاجين إليه، لا أنهم كانت قلوبهم مشغولة بحبه أو بغضه وقد حملت خزائن الأرض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فأخذوها ووضعوها في مواضعاً وما هربوا منها، إذا كان يستوي عندهم المال والماء والذهب والحجر، وما نقل عنهم من امتناع فإما أن ينقل عمن خاف أن لو أخذه أن يخدعه المال ويقيد قلبه فيدعوه إلى الشهوات، وهذا حال الضعفاء، فلا جرم البغض للمال والهرب منه في حقهم كمال؛ وهذا حكم جميع الخلق، لأن كلهم ضعفاء إلا الأنبياء والأولياء، وإما أن ينقل عن قوي بلغ الكمال ولكن أظهر الفرار والنفار نزولاً إلى درجة الضعفاء ليقتدوا به في الترك؛ إذ لو اقتدوا به في الأخذ لهلكوا، كما يفر الرجل المعزم بين يدي أولاده من الحية لا لضعفه عن أخذها ولكن لعلمه أنه لو أخذها أخذها أولاده إذا رأوها فيهلكون، والسير بسير الضعفاء ضرورة الأنبياء والأولياء والعلماء، فقد عرفت إذن أن المراتب ست وأعلاها رتبة المستغني ثم الزاهد ثم الراضي ثم القانع ثم الحريص، وأما المضطر فيتصور في حقه أيضاً الزهد والرضا و القناعة ودرجة تختلف بحسب اختلاف هذه الأحوال، واسم الفقير طلق على هذه الخمسة. أما تسمية المستغني فقيراً فلا وجه لها بهذا المعنى، بل إن سمي فقيراً فبمعنى آخر وهو معرفته بكونه محتاجاً إلى الله تعالى في جميع أموره عامة وفي بقاء استغنائه عن المال خاصة، فيكون اسم الفقير له كاسم العبد لمن عرف نفسه بالعبودية وأقر بها؛ فإنه أحق باسم العبد من الغافلين. وإن كان اسم العبد عاماً للخلق فكذلك اسم الفقير عام، ومن عرف نفسه بالفقر إلى الله تعالى فهو أحق باسم الفقير، فاسم الفقير مشترك بين هذين المعنيين، وإذا عرفت هذا الاشتراك فهمت أن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم " أعوذ بك من الفقر" وقوله عليه السلام: " كاد الفقر أن يكون كفراً" لا يناقض قوله: " أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً" إذ فقر المضطر هو الذي استعاذ منه، والفقر الذي هو الاعتراف بالمسكنة والذلة والافتقار إلى الله تعالى هو الذي سأله في دعائه صلى الله عليه وسلم وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء.

بيان فضيلة الفقر مطلقاً

أما من الآيات فيدل عليه قوله تعالى " للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم " الآية. وقال تعالى: "للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض" ساق الكلام في معرض المدح، ثم قدم وصفه بالفقر على وصفهم بالهجرة والإحصار وفيه دلالة ظاهرة على مدح الفقير.

وأما الأخبار في مدح الفقر فأكثر من أن تحصى: روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: " أي الناس خير؟" فقالوا: موسر من المال يعطي حق الله من نفسه وماله. فقال: "نعم الرجل هذا وليس به" قالوا: فمن خير الناس يا رسول الله؟ قال: " فقير يعطي جهده".

وقال صلى الله عليه وسلم لبلال: " الق الله فقيراً ولا تلقه غنياً".

وقال صلى الله عليه وسلم: " إن الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال".وفي الخبر المشهور: " يدخل فقراء أمتي الجنة

قبل أغنيائها بخمسمائة عام". وفي حديث آخر " بأربعين خريفاً" أي أربعين سنة، فيكون المراد به تقدير تقدم الفقير الحريص على الغني الحريص، والتقدير بخمسمائة عام تقدير الفقير الزاهد على الغني الراغب، وما ذكرناه من اختلاف درجات الفقر يعرفك بالضرورة تفاوتاً بين الفقراء في درجاتهم، وكأن الفقير الحريص على درجة من خمس وعشرين درجة من الفقير الزاهد، إذ هذه نسبة الأربعين إلى خمسمائة، ولا تظنن أن تقدير رسول الله صلى الله عليه وسلم يجري على لسانه جزافاً وبالاتفاق، بل لا يستنطق صلى الله عليه وسلم إلا بحقيقة الحق فإنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، وهذا كقوله صلى الله عليه وسلم: " الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة" فإنه تقدير تحقيق لا محالة، لكن ليس في قوة غيره أن يعرف علة تلك النسبة إلا بتخمين، فأما بالتحقيق فلا، إذ يعلم أن النبوة عبارة عما يختص به النبي ويفارق به غيره، وهو يختص بأنواع من الخواص: أحدها أن يعرف حقائق الأمور المتعلقة بالله وصفاته والملائكة والدار الآخرة، لا كما يعلمه غيره بل مخالفاً له بكثرة وبزيادة اليقين والتحقيق والكشف.

والثاني: أن له في نفسه صفة بها تتم له الأفعال الخارقة للعادات كما أن لنا صفة بها تتم الحركات المقرونة بإرادتنا وباختيارنا وهي القدرة وإن كانت القدرة والمقدور جميعاً من فعل الله تعالى.

والثالث: أن له صفة بها يبصر الملائكة ويشاهدهم كما أن للبصير صفة بها يفارق الأعمى حتى يدرك بها المبصرات.
والرابع: أن له صفة بها يدرك ما سيكون في الغيب إما في اليقظة أو في المنام إذ بها يطالع اللوح المحفوظ فيرى ما فيه من الغيب، فهذه كمالات وصفات يعلم ثبوتها للأنبياء ويعلم انقسام كل واحد منها إلى أقسام، وربما يمكننا أن نقسمها إلى أربعين وإلى خمسين وإلى ستين، ويمكننا أيضاً أن نتكلف تقسيمها إلى ستة وأربعين بحيث تقع الرؤيا الصحيحة جزءاً واحداً من جملتها ولكن تعيين طريق واحد من طرق التقسيمات الممكنة لا يمكن إلا بظن وتخمين فلا ندري تحقيقاً أنه الذي أراده رسول الله صلى الله عليه وسلم أم لا، وإنما المعلوم مجامع الصفات التي بها تتم النبوة وأصل انقسامها، وذلك لا يرشدنا إلى معرفة علة التقدير، فكذلك نعلم أن الفقراء لهم درجات كما سبق. فأما لم كان هذا الفقير الحريص مثلاً على نصف سدس درجة الفقير الزاهد حتى لم يبق له التقدم بأكثر من أربعين سنة إلى الجنة واقتضى ذلك التقدم بخمسمائة عام فليس في قوة البشر غير الأنبياء الوقوف على ذلك إلا بنوع من التخمين ولا وثوق به، والغرض التنبيه على منهاج التقدير في أمثال هذه الأمور، فإن الضعيف الإيمان قد يظن أن ذلك يجري من رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل الاتفاق، وحاشا منصب النبوة على ذلك ولنرجع إلى نقل الأخبار فقد قال صلى الله عليه وسلم أيضاً: " خير هذه الأمة فقراؤها وأسرعها تضجعاً في الجنة ضعفاؤها".
وقال صلى الله عليه وسلم: " إن لي حرفتين اثنتين فمن أحبهما فقد أحبني ومن أبغضهما فقد أبغضني: الفقر والجهاد" وروي أن جبريل عليه السلام نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد، إن الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول: أتحب أن أجعل هذه الجبال ذهباًوتكون معك أينما كنت، فأطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: " يا جبريل، إن الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال ولها يجمع من لا عقل له " فقال له جبريل: يا محمد ثبتك الله بالقول الثابت.

وروي أن المسيح صلى الله عليه وسلم مر في سياحته برجل نائم ملتف في عباءة، فأيقظه وقال: يا نائم قم فاذكر الله تعالى، فقال: ما تريد مني؟ إني قد تركت الدنيا لأهلها، فقال له: فنم إذن يا حبيبي.

ومر موسى صلى الله عليه وسلم برجل نائم على التراب وتحت رأسه لبنة ووجهه ولحيته في التراب وهو متزر بعباءة، فقال: يا رب عبدك هذا في الدنيا ضائع، فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى أما علمت أني إذا نظرت إلى عبد بوجهي كله زويت عنه الدنيا كلها. وعن أبي رافع أنه قال: ورد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عنده ما يصلحه، فأرسلني إلى رجل من يهود خيبر وقال: " قل له يقول لك محمد أسلفني أو بعني دقيقاً إلى هلال رجب " قال فأتيته فقال: لا والله إلا برهن، فأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال: " أما والله إني لأمين في أهل السماء أمين في أهل الأرض ولو باعني أو أسلفني لأديت إليه، اذهب بدرعي هذا إليه فارهنه، فلما خرجت نزلت هذه الآية " ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا" الآية. وهذه الآية تعزية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدنيا.

وقال صلى الله عليه وسلم: " الفقر أزين بالمؤمن من العذار الحسن على خد الفرس".

وقال صلى الله عليه وسلم: " من أصبح منكم معافى في جسمه آمناً في سربه عنده قوت يومه؛ فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها".

وقال كعب الأحبار: قال الله تعالى لموسى عليه السلام: يا موسى إذا رأيت الفقر مقبلاً فقل مرحباً بشعار الصالحين.

وقال عطاء الخراساني: مر نبي من الأنبياء بساحل فإذا هو برجل يصطاد حيتاناً، فقال: بسم الله وألقى الشبكة فلم يخرج فيها شيء، ثم أمر بآخر فقال باسم الشيطان وألقى شبكته فخرج فيها من الحيتان ما كان يتقاعس من كثرتها. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: يا رب ما هذا وقد علمت أن كل ذلك بيدك، فقال الله تعالى للملائكة: اكشفوا لعبدي عن منزلتيهما، فلما رأى ما أعد الله لهذا من الكرامة ولذاك من الهوان قال: رضيت يا رب.

وقال نبينا صلى الله عليه وسلم: " اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها الأغنياء والنساء" وفي لفظ آخر: " فقلت أين الأغنياء؟ حبسهم الجد " وفي حديث آخر " فرأيت أكثر أهل النار النساء فقلت: ما شأنهن؟ فقيل شغلهن الأحمران الذهب والزعفران".

وقال صلى الله عليه وسلم: " تحفة المؤمن في الدنيا الفقر".

وفي الخبر " آخر الأنبياء دخولاً الجنة سليمان بن داود عليهما السلام لمكان ملكه وآخر أصحابي دخولاً الجنة عبد الرحمن بن عوف لأجل غناه" وفي حديث آخر: " رأيته يدخل الجنة زحفاً".

وقال المسيح صلى الله عليه وسلم: بشدة يدخل الغني الجنة.

وفي خبر آخر عن أهل البيت رضي الله عنهم أنه صلى الله عليه وسلم قال: " إذا أحب الله عبداً ابتلاه، فإذا أحبه الحب البالغ اقتناه " قيل: وما اقتناه؟ قال: " لم يترك له أهلاً ولا مالاً".

وفي الخبر: " إذا رأيت الفقر مقبلاً فقل مرحباً بشعار الصالحين، وإذ رأيت الغني مقبلاً فقل ذنب عجلت عقوبته".

وقال موسى عليه السلام: يا رب من أحباؤك من خلقك حتى أحبهم لأجلك؟ فقال: كل فقير فقير "، فيمكن أن يكون الثاني للتوكيد، ويمكن أن يراد به الشديد الضر.

وقال المسيح صلوات الله عليه وسلامه: إني لأحب المسكنة وأبغض النعماء، وكان أحب الأسامي إليه صلوات الله عليه أن يقال له: يا مسكين.
ولما قالت سادات العرب وأغنياؤهم للنبي صلى الله عليه وسلم: اجعل لنا يوماً ولهم يوماً يجيئون إليك ولا نجيء، ونجيء إليك ولا يجيئون، يعنون بذلك الفقراء مثل بلال وسليمان وصهيب وأبي ذر وخباب بن الأرت وعمار بن ياسر وأبي هريرة وأصحاب الصفة من الفقراء رضي الله عنهم أجمعين أجابهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذلك، وذلك لأنهم شكوا إليه التأذي برائحتهم وكان لباس القوم الصوف في شدة الحر؛ فإذا عرقوا فاحت الروائح من ثيابهم، فاشتد ذلك على الأغنياء منهم الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري وعباس بن مرداس السلمي وغيرهم، فأجابهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يجمعهم وإياهم مجلس واحد؛ فنزل قوله تعالى: " واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم " يعني الفقراء " تريد زينة الحياة الدنيا " يعني الأغنياء " ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا " يعني الأغنياء إلى قوله: " وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر" الآية.

واستأذن ابن أم مكتوم على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده رجل من أشراف قريش، فشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله تعالى: " عبس وتولى أن جاءه العمى، وما يدريك لعله يزكى، أو يذكر فتنفعه الذكرى " يعني ابن مكتوم " أما من استغنى فأنت له تصدى" يعني هذا الشريف. وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " يؤتى بالعبد يوم القيامة فيعتذر الله تعالى إليه كما يعتذر الرجل للرجل في الدنيا، فيقول: وعزتي وجلالي ما زويت الدنيا

عنك لهوانك علي ولكن لما أعددت لك من الكرامة والفضيلة، اخرج يا عبدي إلى هذه الصفوف، فمن أطعمك فيّ أو كساك فيّ يريد بذلك وجهي فخذ بيده فهو لك، والناس يومئذ قد ألجمهم العرق فيتخلل الصفوف وينظر من فعل ذلك به فيأخذ بيده ويدخله الجنة".

وقال عليه السلام: " أكثروا معرفة الفقراء واتخذوا عندهم الأيادي فإن لهم دولة " قالوا: يا رسول الله، وما دولتهم؟ قال: " إذا كان يوم القيامة قيل لهم انظروا فمن أطعمكم كسرة أو سقاكم شربة أو كساكم ثوباً فخذوا بيده ثم امضوا به إلى الجنة".

وقال صلى الله عليه وسلم: " دخلت الجنة فسمعت حركة أمامي فنظرت فإذا بلال، ونظرت في أعلاها فإذا فقراء أمتي وأولادهم، ونظرت في أسفلها فإذا فيه من الأغنياء والنساء قليل، فقلت: يا رب ما شأنهم؟ قال: أما النساء فأضر بهن الأحمران الذهب والحرير، وأما الأغنياء فاشتغلوا بطول الحساب، وتفقدت أصحابي فلم أر عبد الرحمن بن عوف، ثم جاءني بعد ذلك وهو يبكي، فقلت: ما خلفك عني؟ قال: يا رسول الله ما وصلت إليك حتى لقيت المشيبات وظننت أني لا أراك، فقلت: ولم؟ قال: كنت أحاسب بمالي".

فانظر إلى هذا وعبد الرحمن صاحب السابقة العظيمة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو من العشرة المخصوصين بأنهم من أهل الجنة، وهو من الأغنياء الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إلا من قال بالمال هكذا وهكذا" ومع هذا فقد استحضر بالغنى إلى هذا الحد.
ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل فقير فلم ير له شيئاً فقال: لو قسم نور هذا على أهل الأرض لوسعهم".

وقال صلى الله عليه وسلم: " ألا أخبركم بملوك أهل الجنة؟" قالوا: بلى يا رسول الله، قال: "كل ضعيف مستضعف أغبر أشعث ذي طمرين لا يؤبه له؛ لو أقسم على الله لأبره".

وقال عمران بن حصين: كانت لي من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاه، فقال: "يا عمران، إن لك عندنا منزلة وجاهاً، فهل لك في عيادة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قلت: نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فقام وقمت معه حتى وقف بباب فاطمة، فقرع الباب وقال: " السلام عليكم، أأدخل؟" فقالت: ادخل يا رسول الله. قال: " أنا ومن معي؟" قالت: ومن معك يا رسول الله؟ قال: " عمران " فقالت فاطمة: والذي بعثك بالحق نبياً ما علي إلا عباءة. قال: " اصنعي بها هكذا وهكذا " وأشار بيده، فقالت: هذا جسدي قد واريته فكيف برأسي؟ فألقى إليها ملاءة كانت عليه خلقة فقال: " شدي على رأسك " ثم أذنت له فدخل فقال: " السلام عليك يا ابنتاه، كيف أصبحت؟" قالت: أصبحت والله وجعة وزادني وجعاً على ما بي أني لست أقدر على طعام آكله فقد أضر بي الجوع، فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: " لا تجزعي يا ابنتاه فوالله ما ذقت طعاماً منذ ثلاث، وإني لأكرم على الله منك، ولو سألت ربي لأطعمني ولكني آثرت الآخرة على الدنيا " ثم ضرب بيده على منكبها وقال لها: "أبشري فوالله إنك لسيدة نساء أهل الجنة " قال: فأين آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران؟ قال: " آسية سيدة نساء عالمها، ومريم سيدة نساء عالمها، وأنت سيدة نساء عالمك، إنكن في بيوت من قصب لا أذى فيها ولا صخب ولا نصب "، ثم قال لها: " اقنعي بابن عمك فوالله لقد زوجتك سيداً في الدنيا وسيداً في الآخرة".
وروي عن علي كرم الله وجهه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إذا أبغض الناس فقراءهم وأظهروا عمارة الدنيا وتكالبوا على جمع الدراهم رماهم الله بأربع خصال: بالقحط من الزمان، والجور من السلطان، والخيانة من ولاة الأحكام، والشوكة من الأعداء".

وأما الآثار: فقد قال أبو الدرداء رضي الله عنه: ذو الدرهمين أشد حبساً - أو قال أشد حساباً- من ذي الدرهم. وأرسل عمر رضي الله عنه إلى سعيد بن عامر بألف دينار، فجاء حزيناً كئيباً فقالت امرأته: أحدث أمر؟ قال: أشد من ذلك، ثم قال: أريني درعك الخلق، فشقه وجعله صرراً وفرقه، ثم قام يصلي ويبكي إلى الغداة، ثم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " يدخل فقراء أمتي الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام، حتى إن الرجل من الأغنياء يدخل في غمارهم فيؤخذ بيده فيستخرج".

وقال أبو هريرة: ثلاثة يدخلون الجنة بغير حساب: رجل يريد أن يغسل ثوبه فلم يكن له خلق يلبسه، ورجل لم ينصب على مستوقد قدرين، ورجل دعا بشرابه فلا يقال له أيها تريد.

وقيل: جاء فقير إلى مجلس الثوري رحمه الله فقال له: تخط، لو كنت غنياً لما قربتك، وكان الأغنياء من أصحابه يودون أنهم فقراء لكثرة تقريبه للفقراء وإعراضه عن الأغنياء. وقال المؤمل: ما رأيت الغني أذل منه في مجلس الثوري، ولا رأيت الفقير أعز منه في مجلس الثوري رحمه الله.

وقال بعض الحكماء: مسكين ابن آدم لو خاف من النار كما يخاف الفقر لنجا منهما جميعاً، ولو رغب في الجنة كما يرغب في الغنى لفاز بهما جميعاً، ولو خاف الله في الباطن كما يخاف خلقه في الظاهر لسعد في الدارين جميعاً.

وقال ابن عباس: ملعون من أكرم بالغنى وأهان بالفقر.

وقال يحيى بن معاذ: حبك للفقراء من أخلاق المرسلين، وإيثارك مجالستهم من علامة الصالحين، وفرارك من صحبتهم من علامة المنافقين.

وفي الأخبار عن الكتب السالفة: أن لله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه عليهم السلام: احذر أن أمقتك فتسقط من عيني فأصب عليك الدنيا صباً.

ولقد كانت عائشة رضي الله عنها تفرق مائة ألف درهم في يوم واحد يوجهها إليها معاوية وابن عامر وغيرهما، وإن درعها لمرقوع، وتقول لها الجارية: لو اشتريت لك بدرهم لحماً تفطرين عليه! وكانت صائمة فقالت: لو ذكرتيني لفعلت، وكان قد أوصاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: " إن أردت اللحوق بي فعليك بعيش الفقراء، وإياك ومجالسة الأغنياء، ولا تنزعي درعك حتى ترقعيه".

وجاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم، فأبى عليه أن يقبلها، فألح عليه الرجل، فقال له إبراهيم: أتريد أن أمحو اسمي من ديوان الفقراء بعشرة آلاف درهم؟ لا أفعل ذلك أبداً - رضي الله عنه.

بيان فضيلة خصوص الفقراء من الراضين والقانعين والصادقين

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " طوبى لمن هدي إلى الإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع به" وقال صلى الله عليه وسلم: " يا معشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلا فلا". فالأول القانع، وهذا الراضي، ويكاد يشعر هذا بمفهومه: أن الحريص لا ثواب له على فقره ولكن العمومات الواردة في فضل الفقر تدل على أن له ثواباً كما سيأتي تحقيقه، فلعل المراد بعدم الرضا هو الكراهة لفعل الله في حبس الدنيا عنه، ورب راغبٍ في المال لا يخطر بقلبه إنكار على الله تعالى ولا كراهة في فعله، فتلك الكراهة هي التي تحبط ثواب الفقر.

وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " إن لكل شيء مفتاحاً ومفتاح الجنة حب المساكين والفقراء لصبرهم، هم جلساء الله تعالى يوم القيامة".
وروي عن علي كرم الله وجهه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " أحب العباد إلى الله تعالى الفقير القانع برزقه الراضي عن الله تعالى".

وقال صلى الله عليه وسلم: " اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا".

وقال: " ما من أحد غني ولا فقير إلا ورد يوم القيامة أنه كان أوتي قوتاً في الدنيا".

وأوحى الله تعالى إلى إسماعيل عليه السلام: اطلبني عند المنكسرة قلوبهم. قال: ومن هم؟ قال: الفقراء الصادقون.
وقال صلى الله عليه وسلم: " لا أحد أفضل من الفقير إذا كان راضياً".

وقال صلى الله عليه وسلم: " يقول الله تعالى يوم القيامة: أين صفوتي من خلقي؟ فتقول الملائكة: ومن هم يا ربنا؟

فيقول: فقراء المسلمين القانعون بعطائي الراضون بقدري، أدخلوهم الجنة. فيدخلونها ويأكلون ويشربون والناس في الحساب يترددون". فهذا في القانع والراضي، وأما الزاهد فسنذكر فضله في الشطر الثاني من الكتاب إن شاء الله تعالى. وأما الآثار في الرضا والقناعة فكثيرة، ولا يخفى أن القناعة يضادها الطمع. وقد قال عمر رضي الله تعالى عنه: إن الطمع فقر واليأس غنى، وإنه من يئس عما في أيدي الناس وقنع استغنى عنهم.
وقال أبو مسعود رضي الله تعالى عنه: ما من يوم إلا وملك ينادي من تحت العرش: يا ابن آدم قليل يكفيك خير من كثير يطغيك.

وقال أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه: ما من أحد إلا وفي عقله نقص، وذلك انه إذا أتته الدنيا بالزيادة ظل فرحاً مسروراً والليل والنهار دائبان في هدم عمره ثم لا يحزنه ذلك، ويح ابن آدم ما ينفع مال يزيد وعمر ينقص.

وقيل لبعض الحكماء: ما الغنى؟ قال: قلة تمنيك ورضاك بما يكفيك.

وقيل: كان إبراهيم بن أدهم من أهل النعم بخراسان، فبينما هو يشرف من قصر له ذات يوم إذ نظر إلى رجل في فناء القصر وفي يده رغيف يأكله، فلما أكل نام، فقال لبعض غلمانه: إذا قام فجئني به، فلما قام جاء به إليه، فقال إبراهيم: أيها الرجل أكلت الرغيف وأنت جائع؟ قال: نعم، قال: فشبعت؟ قال: نعم، قال: ثم نمت طيباً؟ قال: نعم، فقال إبراهيم في نفسه: فما أصنع بالدنيا والنفس تقنع بهذا القدر.

ومر رجل بعامر بن عبد القيس وهو يأكل ملحاً وبقلاً، فقال له: يا عبد الله أرضيت من الدنيا بهذا؟ فقال: ألا أدلك على من رضي بشر من هذا؟ قال: بلى، قال: من رضي بالدنيا عوضاً عن الآخرة.

وكان محمد بن واسع رحمة الله عليه يخرج خبزاً يابساً فيبله بالماء ويأكله بالملح ويقول: من رضي من الدنيا بهذا لم يحتج إلى أحد.

وقال الحسن رحمه الله: لعن الله أقواماً أقسم لهم الله تعالى ثم لم يصدقوه، ثم قرأ " وفي السماء رزقكم وما توعدون ورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ".

وكان أبو ذر رضي الله عنه يوماً في الناس فأتته امرأته فقالت له: أتجلس بين هؤلاء؟ والله ما في البيت هفة ولا سفة، فقال: يا هذه، إن بين أيدينا عقبة كئوداً لا ينجو منها إلا كل مخف، فرجعت وهي راضية.

وقال ذو النون رحمه الله: أقرب الناس إلى الكفر ذو فاقة لا صبر له.

وقيل لبعض الحكماء: ما مالك؟ فقال: التجمل في الظاهر والقصد في الباطن واليأس مما في أيدي الناس.
وروي أن الله عز وجل قال في بعض الكتب السالفة المنزلة: يا ابن آدم، لو كانت الدنيا كلها لك لم يكن منها إلا القوت، فإذا أنا أعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك فأنا محسن إليك.

وقد قيل في القناعة.

اضرع إلى الله لا تضرع إلى الناس	واقنع بيأس فإن العز في الياس
واستغن عن كل ذي قربى وذي رحم	إن الغني من استغنى عن الناس.

وقد قيل في هذا المعنى أيضاً:

يا جامعاً مانعاً والدهر يرمقه	مقدراً أي باب منه يغلقه
مفكراً كيف تأتيه منيته	أغادياً أم بها يسري فتطرقه
جمعت مالاً فقل لي هل جمعت له	يا جامع المال أياماً تفرقه
المال عندك مخزون لوارثه	ما المال مالك إلا يوم تنفقه

أرفه ببال فتى يغدو علـى ثقة | أن الذي قسم الأرزاق يرزقـه
فالعرض منه مصون ما يدنسـه | والوجه منه جديد ليس يخلقـه
إن القناعة من يحلل بساحتـها | لم يبق في ظلها هم يؤرقـه

بيان فضيلة الفقر

اعلم أن الناس قد اختلفوا في هذا، فذهب الجنيد والخواص والأكثرون إلى تفضيل الفقر، وقال ابن عطاء: الغني الشاكر القائم بحقه أفضل من الفقير الصابر. ويقال أن الجنيد دعا على ابن عطاء لمخالفته إياه في هذا فأصابته محنة، وقد ذكرنا ذلك في كتاب الصبر وبيَّنا أوجه التفاوت بين الصبر والشكر - ومهدنا سبيل طلب الفضيلة في الأعمال والأحوال وأن ذلك لا يمكن إلا بتفصيل.

فأما الفقر والغنى إذا أخذا مطلقاً لم يسترب من قرأ الأخبار والآثار في تفضيل الفقر، ولا بد فيه من تفصيل فنقول إنما يتصور الشك في مقامين: أحدهما فقير صابر ليس بحريص على الطلب، بل هو قانع أو راض بالإضافة إلى غني منفق ماله في الخيرات ليس حريصاً على إمساك المال.

والثاني فقير حريص مع غني حريص، إذ لا يخفى أن الفقير القانع أفضل من الغني الحريص الممسك، وأن الغني المنفق ماله في الخيرات أفضل من الفقير الحريص. المقام الأول فقير صابر ليس بحريص على الطلب أما الأول فربما يظن أن الغني أفضل من الفقير، لأنهما تساويا في ضعف الحرص على المال، والغني متقرب بالصدقات والخيرات والفقير عاجز عنه، وهذا هو الذي ظنه ابن عطاء فيما نحسبه، فأما الغني المتمتع بالمال وإن كان في مباح فلا يتصور أن يفضل على الفقير القانع، وقد يشهد له ما روي في الخبر: أن الفقراء شكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبق الأغنياء بالخيرات والصدقات والحج والجهاد، فعلمهم كلمات في التسبيح وذكر لهم أنهم ينالون بها فوق ما ناله الأغنياء، فتعلم الأغنياء ذلك فكانوا يقولونه، فعاد الفقراء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه، فقال عليه السلام: " ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء".

وقد استشهد ابن عطاء أيضاً لما سئل عن ذلك فقال: الغني أفضل لأنه وصف الحق، أما دليله الأول ففيه نظر، لأن الخبر قد ورد مفصلاً تفصيلاً يدل على خلاف ذلك: وهو أن ثواب الفقير في التسبيح يزيد على ثواب الغني، وأن فوزهم بذلك الثواب فضل الله يؤتيه من يشاء، فقد روى يزيد بن أسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بعثني الفقراء رسولاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إني رسول الفقراء إليك؛ فقال: " مرحباً بك وبمن جئت من عندهم قوم أحبهم " قال: قالوا يا رسول الله إن الأغنياء ذهبوا بالخير يحجون ولا نقدر عليه، ويعتمرون ولا نقدر عليه، وإذا مرضوا بعثوا بفضل أموالهم ذخيرة لهم؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " بلغ عني الفقراء أن لمن صبر واحتسب منكم ثلاث خصال ليست للأغنياء: أما خصلة واحدة: فإن في الجنة غرفاً ينظر إليها أهل الجنة كما ينظر أهل الأرض إلى نجوم السماء، لا يدخلها إلا نبي فقير، أو شهيد فقير، أو مؤمن فقير، والثانية: يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام، والثالثة: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، وقال الفقير مثل ذلك لم يلحق الغني بالفقير ولو أنفق فيها عشرة آلاف درهم، وكذلك أعمال البر كلها "، فرجع إليهم فأخبرهم بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: رضينا رضينا.

فهذا يدل على أن قوله: " ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء " أي مزيد ثواب الفقراء على ذكرهم. وأما قوله: إن الغني وصف الحق، فقد أجابه بعض الشيوخ فقال: أترى أن الله تعالى غني بالأسباب والأعراض، فانقطع ولم ينطق، وأجاب آخرون فقالوا: إن التكبر من صفات الحق فينبغي أن يكون أفضل من التواضع، ثم قالوا: بل هذا يدل على أن الفقر أفضل لأن صفات العبودية فضل للعبد كالخوف والرجاء، وصفات الربوبية لا ينبغي أن ينازع فيها، ولذلك قال تعالى فيما روى عنه نبينا صلى الله عليه وسلم: " الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما قصمته".وقال سهل: حب العز والبقاء شرك في الربوبية ومنازعة فيها لأنهما من صفات الرب تعالى؛ فمن هذا الجنس تكلموا في تفضيل الغني والفقير، وحاصل ذلك تعلق بعمومات تقبل التأويلات وبكلمات قاصرة لا تبعد مناقضتها، إذ كما يناقض قول من فضل الغني بأنه صفة الحق بالتكبر، فكذلك يناقض قول من ذم الغني لأنه وصف للعبد بالعلم والمعرفة فإنه وصف الرب تعالى، والجهل والغفلة وصف العبد، وليس لأحد أن يفضل الغفلة على العلم، فكشف الغطاء عن هذا هو ما ذكرناه في كتاب الصبر: وهو أن ما لا يراد لعينه بل يراد لغيره فينبغي أن يضاف إلى مقصوده، إذ به يظهر فضله، والدنيا ليست محذورة لعينها ولكن لكونها عائقة عن الوصول إلى الله تعالى، ولا الفقر

مطلوباً لعينه لكن لأن فيه فقد العائق عن الله تعالى وعدم الشاغل عنه، وكم من غني لم يشغله الغني عن الله عز وجل مثل سليمان عليه السلام وعثمان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنهما، وكم من فقير شغله الفقر وصرفه عن المقصد، وغاية المقصد في الدنيا هو حب الله تعالى والأنس به، ولا يكون ذلك إلا بعد معرفته، وسلوك سبيل المعرفة مع الشواغل غير ممكن، والفقر قد يكون من الشواغل كما الغنى قد يكون من الشواغل، وإنما الشاغل على التحقيق حب الدنيا إذ لا يجتمع معه حب الله تعالى في القلب، والمحب للشيء مشغول به سواء كان في فراقه أو في وصاله، وربما يكون شغله في الفراق أكثر، وربما يكون شغله في الوصال أكثر، والدنيا معشوقة الغافلين، المحروم منها مشغول بطلبها، والقادر عليها مشغول بحفظها والتمتع بها، فإذن إن فرضت فارغين عن حب المال بحيث صار المال في حقهما كالماء استوى الفاقد والواجد، إذ كل واحد غير متمتع إلا بقدر الحاجة، ووجود الحاجة قدر الحاجة أفضل من فقده، إذ الجائع يسلك سبيل الموت لا سبيل المعرفة، وإن أخذت الأمر باعتبار الأكبر فالفقير عن الخطر أبعد؛ إذ فتنة السراء أشد من فتنة الضراء، ومن العصمة أن لا يقدر، ولذلك قال الصحابة رضي الله تعالى عنهم: بلينا بفتنة الضراء فصبرنا، وبلينا بفتنة السراء فلم نصبر. وهذه خلقة الآدميين كلهم إلا الشاذ الفذ الذي لا يوجد في الأعصار الكثيرة إلا نادراً.

ولما كان خطاب الشرع مع الكل لا مع ذلك النادر - والضراء أصلح للكل دون ذلك النادر - زجر الشرع عن الغنى وذمه، وفضل الفقر ومدحه، حتى قال المسيح عليه السلام: لا تنظروا إلى أموال أهل الدنيا فإن بريق أموالهم يذهب بنور إيمانكم.

وقال بعض العلماء: تقليب الأموال يمص حلاوة الإيمان.
وفي الخبر: " إن لكل أمة عجلاً وعجل هذه الأمة الدينار والدرهم" وكان أصل عجل قوم موسى من حلية الذهب والفضة أيضاً، واستواء المال والماء، والذهب والحجر إنما يتصور للأنبياء عليهم السلام والأولياء؛ ثم يتم لهم ذلك بعد فضل الله تعالى بطول المجاهدة، إن كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول للدنيا: " إليك عني" إذ كانت تتمثل له بزينتها. وكان علي كرم الله وجهه يقول: يا صفراء غري غيري، ويا بيضاء غري غيري. وذلك لاستشعاره في نفسه ظهور مبادئ الاغترار بها لولا أن رأى برهان ربه، وذلك هو الغنى المطلق، إذ قال عليه الصلاة والسلام: " ليس الغنى عن كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس". وإذا كان ذلك بعيداً فإذن الأصلح لكافة الخلق فقد المال وإن تصدقوا به وصرفوه إلى الخيرات، لأنهم لا ينفكون في القدرة على المال عن أنس بالدنيا وتمتع بالقدرة عليها واستشعار راحة في بذلها، وكل ذلك يورث الأنس بهذا العالم، وبقدر ما يأنس العبد بالدنيا يستوحش من الآخرة؟ وبقدر ما يأنس بصفة من صفاته سوى صفة المعرفة بالله يستوحش من الله ومن حبه، ومهما انقطعت أسباب الأنس بالدنيا تجافي القلب عن الدنيا وزهرتها، والقلب إذا تجافى عما سوى الله تعالى وكان مؤمناً بالله انصرف لا محالة إلى الله، إذ لا يتصور قلب فارغ، وليس في الوجود إلا الله تعالى وغيره، فمن أقبل على غيره فقد تجافى عنه ومن أقبل عليه تجافى عن غيره، ويكون إقباله على أحدهما بقدر تجافيه عن الآخر، وقربه من أحدهما بقدر بعده من الآخر، ومثلهما مثل المشرق والمغرب فإنهما جهتان، فالمتردد بينهما يقدر ما يقرب من أحدهما يبعد عن الآخر، بل عين القرب من أحدهما هو عين البعد من الآخر، فعين حب الدنيا هو عين بغض الله تعالى، فينبغي أن يكون مطمح نظر العارف قلبه في عزوبه عن الدنيا وأنسه بها، فإذن فضل الفقير والغني بحسب تعلق قلبيهما بالمال فقط، فإن تساويا فيه تساوت درجتهما، إلا أن هذا مزلة قدم وموضع غرور، فإن الغني ربما يظن أنه منقطع القلب عن المال، ويكون دفيناً في باطنه وهو لا يشعر به، وإنما يشعر به إذا فقده، فليجرب نفسه بتفريقه أو إذا سرق منه، فإن وجد لقلبه إليه التفاتاً فليعلم أنه كان مغروراً، فكم من رجل باع سرية له لظنه أنه منقطع القلب عنها فبعد لزوم البيع وتسليم الجارية اشتعلت من قلبه النار التي كنت مستكنة فيه، فتحقق إذن أنه كان مغروراً، وأن العشق كان مستكناً في الفؤاد استكنان النار تحت الرماد، وهذا حال كل الأغنياء إلا الأنبياء والأولياء، وإذا كان ذلك محالاً أو بعيداً فلنطلق القول بأن الفقر أصلح لكافة الخلق وأفضل، لأن علاقة الفقير وأنسه بالدنيا أضعف وبقدر ضعف علاقته يتضاعف ثواب تسبيحاته وعباداته، فإن حركات اللسان ليست مرادة لأعيانها بل ليتأكد بها الأنس بالمذكور، ولا يكون تأثيرها في إثارة الأنس في قلب فارغ من غير المذكور كتأثيرها في قلب مشغول، ولذلك قال بعض السلف: مثل من تعبد وهو في طلب الدنيا مثل من يطفئ النار بالحلفاء ومثل من يغسل يده من الغمر بالسمك.

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى: تنفس فقير دون شهوة لا يقدر عليها: أفضل من عبادة غني ألف عام.
وعن الضحاك قال: من دخل السوق فرأى شيئاً يشتهيه فصبر واحتسب، كان خيراً له من ألف دينار ينفقها كلها في سبيل الله تعالى.

وقال رجل لبشر بن الحارث رحمه الله: ادع لي فقد أضر بي العيال، فقال: إذا قال لك عيالك ليس عندنا دقيق ولا خبز فادع الله في ذلك الوقت، فإن دعاءك أفضل من دعائي.

وكان يقول: مثل الغني المتعبد مثل روضة على مزبلة، ومثل الفقير المتعبد مثل عقد الجوهر في جيد الحسناء. وقد كانوا يكرهون سماع علم المعرفة من الأغنياء وقد قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: اللهم إني أسألك الذل عند النصف من نفسي، والزهد فيما جاوز الكفاف.
وإذا كان مثل الصديق رضي الله عنه في كماله يحذر من الدنيا ووجودها فكيف يشك في أن فقد المال أصلح من وجوده هذا، مع أن أحسن أحوال الغني أن يأخذ حلالاً وينفق طيباً، ومع ذلك فيطول حسابه في عرصات القيامة ويطول انتظاره، ومن نوقش الحساب فقد عذب، ولهذا تأخر عبد الرحمن بن عوف عن الجنة إذ كان مشغولاً بالحساب كما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولهذا قال أبو الدرداء رضي الله عنه: ما أحب أن لي حانوتاً على باب المسجد ولا تخطئني فيه صلاة وذكر وأربح كل يوم خمسين ديناراً وأتصدق بها في سبيل الله تعالى، قيل: وما تكره؟ قال: سوء الحساب.

ولذلك قال سفيان رحمه الله: اختار الفقراء ثلاثة أشياء، واختار الأغنياء ثلاثة أشياء: اختار الفقراء راحة النفس وفراغ القلب وخفة الحساب، واختار الأغنياء تعب النفس وشغل القلب وشدة الحساب. وما ذكره ابن عطاء من أن الغني وصف الحق فهو بذلك أفضل فهو صحيح، ولكن إذا كان العبد غنياً عن وجود المال وعدمه جميعاً بأن يستوي عنده كلاهما، فأما إذا كان غنياً بوجوده ومفتقراً إلى بقائه فلا يضاهي غناه غنى الله تعالى، لأن الله تعالى غني بذاته لا بما يتصور زواله والمال يتصور زواله بأن يسرق، وما ذكره من الرد عليه بأن الله ليس غنياً بالأعراض والأسباب صحيح في ذم غني يريد بقاء المال، وما ذكرت من أن صفات الحق لا تليق بالعبد غير صحيح، بل العلم من صفاته وهو أفضل شيء للعبد، بل منتهى العبد أن يتخلق بأخلاق الله تعالى، وقد سمعت بعض المشايخ يقول: إن سألك الطريق إلى الله تعالى قبل أن يقطع الطريق تصير الأسماء التسعة والتسعون أوصافاً له: أي يكون له من كل واحد نصيب، وأما التكبر فلا يليق بالعبد، فإن التكبر على من لا يستحق التكبر عليه ليس من صفات الله تعالى، وأما التكبر على من يستحقه كتكبر المؤمن على الكافر وتكبر العالم على الجاهل والمطيع على العاصي فيليق به، نعم قد يراد بالتكبر الزهو والصلف والإيذاء وليس ذلك من وصف الله تعالى، وإنما وصف الله تعالى أنه أكبر من كل شيء وأنه يعلم أنه كذلك، والعبد مأمور به بأنه يطلب أعلى المراتب إن قدر عليه، ولكن بالاستحقاق كما هو حقه لا بالباطل والتلبيس، فعلى العبد أن يعلم أن المؤمن أكبر من الكافر، والمطيع أكبر من العاصي، والعالم أكبر من الجاهل، والإنسان أكبر من البهيمة والجماد والنبات، وأقرب إلى الله تعالى منها فلو رأى بهذه الصفة رؤية محققة لا شك فيها لكانت صفة التكبر حاصلة له ولائقة به وفضيلة في حقه، إلا أنه لا سبيل له إلى معرفته فإنه ذلك موقوف على الخاتمة، وليس يدري الخاتمة كيف تكون وكيف تتفق؟ فلجهله بذلك وجب أن لا يعتقد لنفسه رتبة فوق رتبة الكافر؛ إذ ربما يختم للكافر بالإيمان، وقد يختم له بالكفر، فلم يكن ذلك لائقاً به لقصور علمه عن معرفة العاقبة، ولما تصور أن يعلم الشيء على ما هو به كان العلم كمالاً في حقه لأنه في صفات الله تعالى، ولما كانت معرفة بعض الأشياء قد تضره صار ذلك العلم نقصاناً في حقه إذ ليس من أوصاف الله تعالى علم يضره، فمعرفة الأمور التي لا ضرر فيها هي التي تتصور في العبد من صفات الله تعالى، فلا جرم هو منتهى الفضيلة وبه فضل الأنبياء والأولياء والعلماء، فإذن لو استوى عنده وجود المال وعدمه فهذا نوع من الغنى يضاهي بوجه من الوجوه الغنى الذي يوصف به الله سبحانه وتعالى فهو فضيلة، أما الغنى بوجود المال فلا فضيلة فيه أصلاً، فهذا بيان نسبة حال الفقير القانع إلى حال الغني الشاكر.

المقام الثاني في نسبة حال الفقير الحريص إلى حال الغني الحريصولنفرض هذا في شخص واحد هو طلب للمال وساع فيه وفاقد له ثم وجده؛ فله حالة الفقد وحالة الوجود، فأي حالتيه أفضل؟ فنقول: ننظر فإن كان مطلوبه ما لا بد منه في المعيشة وكان قصده أن يسلك سبيل الدين ويستعين به عليه فحال الوجود أفضل، لأن الفقر يشغله، بالطلب، وطالب القوت لا يقدر على الفكر والذكر إلا قدرة مدخولة بشغل؛ والمكفي هو القادر، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: " اللهم اجعل قوت آل محمد كفافاً " وقال: " كاد الفقر أن يكون كفراً " أي الفقر مع الاضطرار فيما لا بد منه، وإن كان المجلوب فوق الحاجة أو كان المطلوب قدر الحاجة ولكن لم يكن المقصود الاستعانة به على سلوك سبيل الدين، فحالة الفقر أفضل وأصلح، لأنهما استويا في الحرص وحب المال، واستويا في أن كل واحد منهما ليس يقصد به الاستعانة على طريق الدين، واستويا في أن كل واحد منهما ليس يتعرض لمعصية بسبب الفقر والغنى، ولكن

افترقا في أن الواجد يأنس بما وجده فيتأكد حبه في قلبه ويطمئن إلى الدنيا، والفاقد المضطر يتجافى قلبه عن الدنيا وتكون الدنيا عنده كالسجن الذي يبغي الخلاص منه، ومهما استوت الأمور كلها وخرج من الدنيا رجلان أحدهما أشد ركوناً إلى الدنيا؛ فحاله أشد لا محالة؛ إذ يلتفت قلبه إلى الدنيا ويستوحش من الآخرة بقدر تأكد أنسه بالدنيا، وقد قال صلى الله عليه وسلم: " إن روح القدس نفث في روعي: أحبب من أحببت فإنك مفارقه" وهذا تنبيه على أن فراق المحبوب شديد، فينبغي أن تحب من لا يفارقك وهو الله تعالى، ولا تحب ما يفارقك وهو الدنيا، فإنك إذا أحببت الدنيا كرهت لقاء الله تعالى، فيكون قدومك بالموت على ما تكرهه، وفراقك لما تحبه؛ وكل من فارق محبوباً فيكون أذاه في فراقه بقدر حبه وقدر أنسه وأنس الواجد للدنيا القادر عليها أكثر من أنس الفاقد لها وإن كان حريصاً عليها، فإذن قد انكشف بهذا التحقيق أن الفقر هو الأشرف والأفضل والأصلح لكافة الخلق إلا في موضعين: أحدهما غني مثل غنى عائشة رضي الله عنها يستوي عنده الوجود والعدم، فيكون الوجود مزيداً له، إذ يستفيد به أدعية الفقراء والمساكين وجمع هممهم؛ والثاني الفقر عن مقدار الضرورة فإن ذلك يكاد أن يكون كفراً، ولا خير فيه بوجه من الوجوه إلا إذا كان وجوده يبقي حياته ثم يستعين بقوته وحياته على الكفر والمعاصي، ولو مات جوعاً لكانت معاصيه أقل؛ فالأصلح له أن يموت جوعاً ولا يجد ما يضطر إليه سبيلاً؛ فهذا تفصيل القول في الغنى والفقر.

ويبقى النظر في فقير حريص متكالب على طلب المال ليس له هم سواه، وفي غنى دونه في الحرص على حفظ المال، ولم يكن تفجعه بفقد المال لو فقده كتفجع الفقير بفقره، فهذا في محل النظر، والأظهر أن بعدهما عن الله تعالى بقدر قوة تفجعهما لفقد المال وقربهما بقدر ضعف تفجعهما بفقده، والعلم عند الله تعالى فيه.

بيان آداب الفقير في فقره

اعلم أن للفقير آداباً في باطنه ومخالطته وأفعاله ينبغي أن يراعيها. فأما أدب باطنه فإنه لا يكون فيه كراهية لما ابتلاه الله تعالى به من الفقر، أعني أنه لا يكون كارهاً فعل الله تعالى من حيث إنه فعله - وإن كان كارهاً للفقر - كالمحجوم يكون كارهاً للحجامة لتألمهبها ولا يكون كارهاً فعل الحجام ولا كارهاً للحجام، بل ربما يتقلد منه منة، فهذا أقل درجاته وهو واجب، ونقيضه حرام ومحبط ثواب الفقر، وهو معنى قوله عليه السلام: " يا معشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلا فلا " وأرفع من هذا أن لا يكون كارهاً للفقر بل يكون راضياً به، وأرفع منه أن يكون طالباً له وفرحاً به لعلمه بغوائل الغنى، ويكون متوكلاً في باطنه على الله تعالى واثقاً به في قدر ضرورته أنه يأتيه لا محالة ويكون كارهاً للزيادة على الكفاف. وقد قال علي كرم الله وجهه: إن لله تعالى عقوبات بالفقر ومثوبات بالفقر؛ من علامات الفقر إذا كان مثوبة أن يحسن عليه خلقه ويطيع به ربه، ولا يشكو حاله، ويشكر الله تعالى على فقره، ومن علاماته - إذا كان عقوبة - أن يسوء خلقه ويعصي ربه بترك طاعته ويكثر الشكاية ويتسخط القضاء، وهذا يدل أن كل فقير فليس بمحمود، بل المحمود الذي لا يتسخط ويرضى أو يفرح بالفقر ويرضى لعله بثمرته، إذ قيل: ما أعطى عبد شيئاً من الدنيا إلا قيل له: خذه على ثلاثة أثلاث: شغل وهم وطول حساب.

وأما أدب ظاهره: فأن يظهر التعفف والتجمل ولا يظهر الشكوى والفقر، بل يستر فقره ويستر أنه يستره ففي الحديث "إن الله تعالى يحب الفقير المتعفف أبا العيال ".

وقال تعالى: "يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف".

وقال سفيان: أفضل الأعمال التجمل عند المحنة.

وقال بعضهم: ستر الفقر من كنوز البر.

وأما في الأعمال فأدبه: أن لا يتواضع لغني لأجل غناه، بل يتكبر عليه.

قال علي كرم الله وجهه: ما أحسن تواضع الغني للفقير رغبة في ثواب الله تعالى، وأحسن منه تيه الفقير على الغني ثقة بالله عز وجل، فهذه رتبة، وأقل منها أن لا يخالط الأغنياء ولا يرغب في مجالستهم لأن ذلك من مبادئ الطمع.

قال الثوري رحمه الله: إذا خالط الفقير الأغنياء فاعلم أنه مراء، وإذا خالط السلطان فاعلم أنه لص.

وقال بعض العارفين: إذا خالط الفقير الأغنياء انحلت عروته، فإذا طمع فيهم انقطعت عصمته، فإذا سكن إليهم ضل. وينبغي أن لا يسكت عن ذكر الحق مداهنة للأغنياء وطمعاً في العطاء.

وأما أدبه في أفعاله: فأن لا يفتر بسبب الفقر عن عبادة، ولا يمنع بذل قليل ما يفضل عنه، فإن ذلك جهد المقل، وفضله أكثر من أموال كثيرة تبذل عن ظهر غني.

روى زيد بن أسلم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " درهم من الصدقة أفضل عند الله من مائة ألف درهم ". قيل: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: " أخرج رجل من عرض ماله مائة ألف درهم فتصدق بها، وأخرج رجل درهماً من درهمين لا يملك غيرهما طيبة به نفسه، فصار صاحب الدرهم أفضل من صاحب المائة ألف". وينبغي أن لا يدخر مالاً بل يأخذ قدر الحاجة ويخرج الباقي وفي الادخار ثلاث درجات: إحداها أن لا يدخر إلا ليومه وليلته وهي درجة الصديقين.

والثانية: أن يدخر لأربعين يوماً فإن ما زاد عليه داخل في طول الأمل، وقد فهم العلماء ذلك من ميعاد الله تعالى لموسى عليه السلام ففهم منه الرخصة في أمل الحياة أربعين يوماً، وهذه درجة المتقين.
والثالثة: أن يدخر لسنته وهي أقصى المراتب وهي رتبة الصالحين. ومن زاد في الادخار على هذا فهو واقع في غمار العموم خارج عن حيز الخصوص بالكلية، فغنى الصالح الضعيف في طمأنينة قلبه في قوت سنته، وغنى الخصوص في أربعين يوماً، وغنى خصوص الخصوص في يوم وليل. وقد قسم النبي صلى الله عليه وسلم نساءه على مثل هذه الأقسام، فبعضهن كان يعطيها قوت سنة عند حصول ما يحصل، وبعضهن قوت أربعين يوماً وليلة وهو قسم عائشة وحفصة.

بيان آداب الفقير في قبول العطاء إذا جاءه بغير سؤال

ينبغي أن يلاحظ الفقير فيما جاءه ثلاثة أمور: نفس المال، وغرض المعطي، وغرضه في الأخذ.
أما نفس المال فينبغي أن يكون حلالاً خالياً عن الشبهات كلها، فإن كان فيه شبهة فليتحرز من أخذه، وقد ذكرنا في كتاب الحلال والحرام درجات الشبهة وما يجب اجتنابه وما يستحب. وأما غرض المعطي فلا يخلو: إما أن يكون غرضه تطبيب قلبه وطلب محبته وهو الهدية، أو الثواب وهو الصدقة والزكاة، والذكر والرياء والسمعة إما على التجرد وإما ممزوجاً ببقية الأغراض.

أما الأول - وهو الهدية - فلا بأس بقبولها فإن قبولها سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن ينبغي أن لا يكون فيها منة. فإن كان فيها منة فالأولى تركها، فإن علم أن بعضها مما تعظم فيه المنة فليرد البعض دون البعض؛ فقد أهدي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سمن وأقط وكبش، فقبل السمن والأقط ورد الكبش.
وكان صلى الله عليه وسلم يقبل من بعض الناس ويرد على بعض. وقال: " لقد هممت أن لا أتهب إلا من قرشي أو ثقفي أو أنصاري أو دوسي" وفعل هذا جماعة من التابعين.

وجاءت إلى فتح الموصلي صرة فيها خمسين درهماً فقال: حدثنا عطاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من أتاه رزق من غير مسألة فرده فأنما يرده على الله". ثم فتح الصرة فأخذ منها درهماً ورد سائرها.
وكان الحسن يروي هذا الحديث أيضاً ولكن حمل إليه رجل كيساً ورزمة من رقيق ثياب خراسان، فرد ذلك وقال: من جلس مجلسي هذا وقبل من الناس مثل هذا لقي الله عز وجل يوم القيامة وليس له خلاق. وهذا يدل على أن أمر العالم والواعظ أشد في قبول العطاء. وقد كان الحسن يقبل من أصحابه.

وكان إبراهيم التيمي يسأل من أصحابه الدرهم والدرهمين ونحوه ويعرض عليه غيرهم المئين فلا يأخذها. وكان بعضهم إذا أعطاه صديقه شيئاً يقول: اتركه عندك وانظر إن كنت بعد قبوله في قلبك أفضل مني قبل القبول فأخبرني حتى آخذه وإلا فلا، وأمارة هذا أن يشق عليه الرد لو رده ويفرح بالقبول ويرى المنة على نفسه في قبول صديقه هديته، فإن علم أنه يمازجه منة فأخذه مباح ولكنه مكروه عند الفقراء الصادقين.

وقال بشر: ما سألت أحداً قط شيئاً إلا سرياً السقطي لأنه قد صح عندي زهده في الدنيا فهو يفرح بخروج الشيء من يده ويتبرم ببقائه عنده فأكون عوناً له على ما يحب.

وجاء خراساني إلى الجنيد رحمه الله بمال وسأله أن يأكله فقال: أفرقه على الفقراء، فقال: ما أريد هذا. قال: ومتى أعيش حتى آكل هذا؟ قال: ما أريد أن تنفقه في الخل والبقل بل في الحلاوات والطيبات، فقبل ذلك منه، فقال الخراساني: ما أجد في بغداد أمن علي منك، فقال الجنيد: ولا ينبغي أن يقبل إلا من مثلك.

الثاني: أن يكون للثواب المجرد وذلك صدقة أو زكاة، فعليه أن ينظر في صفات نفسه هل هو مستحق للزكاة؟ فإن اشتبه عليه فهو محل شبهة، وقد ذكرنا تفصيل ذلك كتاب أسرار الزكاة. وإن كانت صدقة وكان يعطيه لدينه فلينظر إلى باطنه، فإن كان مقارفاً لمعصية في السر يعلم أن المعطي لو علم ذلك لنفر طبعه ولما تقرب إلى الله بالتصدق عليه، فهذا حرام أخذه كما لو أعطاه لظنه أنه عالم أو علوي ولم يكن، فإن أخذه حرام محض لا شبهة فيه.

الثالث: أن يكون غرضه السمعة والرياء والشهرة، فينبغي أن يرد عليه قصده الفاسد ولا يقبله، إذ يكون معيناً له على غرضه الفاسد.

وكان سفيان الثوري يرد ما يعطي ويقول: لو علمت أنهم لا يذكرون ذلك افتخاراً به لأخذت وعوتب بعضهم في رد ما كان يأتيه من صلة فقال: إنما أراد صلتهم إشفاقاً عليهم ونصحاً لهم لأنهم يذكرون ذلك ويحبون أن يعلم به فتذهب أموالهم وتحبط أجورهم.

وأما غرضه في الأخذ فينبغي أن ينظر: أهو محتاج إليه فيما لا بد منه أو هو مستغن عنه، فإن كان محتاجاً إليه وقد سلم من الشبهة والآفات التي ذكرناها في المعطي فالأفضل له الأخذ، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ما المعطي من سعة بأعظم أجراً من الآخذ إذا كان محتاجاً".
وقال صلى الله عليه وسلم: " من أتاه شيء من هذا المال من غير مسألة ولا استشراف فإنما هو رزق ساقه الله إليه" وفي لفظ آخر: " فلا يرده ".

وقال بعض العلماء: من أعطي ولم يأخذ سأل ولم يعط.
وقد كان سري السقطي يوصل إلى أحمد بن حنبل رحمة الله عليهما شيئاً فرده مرة، فقال له السري: يا أحمد، احذر آفة الرد فإنها أشد من آفة الأخذ، فقال له أحمد: أعد علي ما قلت! فأعاده، فقال أحمد: ما رددت عليك إلا لأن عندي قوت شهر، فاحبسه لي عندك، فإذا كان بعد شهر فأنفذه إلي. وقد قال بعض العلماء: يخاف في الرد مع الحاجة عقوبة من ابتلاء بطمع أو دخول في شبهة أو غيره؛ فأما إذا كان ما أتاه زائداً على حاجته فلا يخلو: إما أن يكون حاله الاشتغال بنفسه أو التكفل بأمور الفقراء والإنفاق عليهم لما في طبعه من الرفق والسخاء، فإن كان مشغولاً بنفسه فلا وجه لأخذه وإمساكه إن كان طالباً طريق الآخرة، فإن ذلك محض إتباع الهوى، وكل عمل ليس لله فهو سبيل الشيطان أو داع إليه، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، ثم له مقامان: أحدهما أن يأخذ في العلانية ويرد في السر، أو يأخذ في العلانية ويفرق في السر، وهذا مقام الصديقين؛ وهو شاق على النفس لا يطيقه إلا من اطمأنت نفسه بالرياضة.

والثاني أن يترك ولا يأخذ ليصرفه صاحبه إلى من هو أحوج منه، أو يأخذ ويوصل إلى من هو أحوج منه فيفعل كليهما في السر أو كليهما في العلانية؛ وقد ذكرنا هل الأفضل إظهار الأخذ أو إخفاؤه؟ في كتاب أسرار الزكاة مع جملة من أحكام الفقر فليطلب من موضعه. وأما امتناع أحمد بن حنبل عن قبول عطاء سري السقطي رحمهما الله، فإنما كان لاستغنائه عنه، إذ كان عنده قوت شهر ولم يرض لنفسه أن يشتغل بأخذه وصرفه إلى غيره؛ فإن في ذلك آفات وأخطاراً، والورع يكون حذراً من مظان الآفات إذا لم يأمن مكيدة الشيطان على نفسه.

وقال بعض المجاورين بمكة: كانت عندي دراهم أعددتها للإنفاق في سبيل الله، فسمعت فقيراً قد فرغ من طوافه وهو يقول بصوت خفي: أنا جائع كما ترى عريان كما ترى، فما ترى يا من يرى ولا يُرى، فنظرت فإذا عليه خلقان لا تكاد تواريه، فقلت في نفسي: لا أجد لدراهمي موضعاً أحسن من هذا؛ فحملتها إليه، فنظر إليها ثم أخذ منها خمسة

دراهم وقال: أربعة ثمن مئزرين، ودرهم أنفقه ثلاثة فلا حاجة بي إلى الباقي فرده. قال: فرأيته الليلة الثانية وعليه مئزران جديدان، فهجس في نفسي منه شيء فالتفت إلي فأخذ بيدي فأطافني معه أسبوعاً كل شوطاً منها على جوهر من معادن الأرض يتخشخش تحت أقدامنا إلى الكعبين: منها ذهب وفضة وياقوت ولؤلؤ وجوهر، ولم يظهر ذلك للناس، فقال: هذا كله قد أعطانيه فزهدت فيه وآخذ من أيدي الخلق لأن هذه أثقال وفتنة، وذلك للعباد فيه رحمة ونعمة، والمقصود من هذا: أن الزيادة على قدر الحاجة إنما تأتيك ابتلاء وفتنة لينظر الله إليك ماذا تعمل فيه، وقدر الحاجة يأتيك رفقاً بك، فلا تغفل عن الفرق بين الرفق والابتلاء.

قال الله تعالى: " إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً ".
وقد قال صلى الله عليه وسلم: " لا حق لابن آدم إلا في ثلاث: طعام يقيم صلبه، وثوب يواري عورته، وبيت يكنه، فما زاد فهو حساب".

فإذن أنت في أخذ قدر الحاجة من هذه الثلاث مثاب، وفيما زاد عليه أن لم تعصر الله متعرض للحساب، وإن عصيت الله فأنت متعرض للعقاب.
ومن الاختبار أيضاً: أن تعزم على ترك لذة من اللذات تقرباً إلى الله تعالى وكسراً لصفة النفس فتأتيك عفواً صفواً لتمتحن بها قوة عقلك، فالأولى الامتناع عنها فإن النفس إذا رخص لها في نقض العزم ألفت نقض العهد وعادت لعادتها ولا يمكن قهرها، فرد ذلك مهم وهو الزهد، فإن أخذتها وصرفته إلى محتاج فهو غاية الزهد، ولا يقدر عليه إلا الصديقون: وأما إذا كانت حالك السخاء والبذل والتكفل بحقوق الفقراء وتعهد جماعة من الصلحاء فخذ ما زاد على حاجتك فإنه غير زائد على حاجة الفقراء، وبادر به إلى الصرف إليهم ولا تدخره، إن إمساكه ولو ليلة واحدة فيه فتنة واختبار، فربما يحلو في قلبك فتمسكه فيكون فتنة عليك، وقد تصدى لخدمة الفقراء جماعة اتخذوها وسيلة إلى التوسع في المال والتنعم في المطعم والمشرب وذلك هو الهلاك. ومن كان غرضه الرفق وطلب الثواب به فله أن يستقرض على حسن الظن بالله لا على اعتماد السلاطين الظلمة، فإن رزقه الله من حلال قضاه. وغن مات قبل القضاء قضاه الله تعالى عنه وأرضى غرماءه، وذلك بشرط أن يكون مكشوف الحال عند من يقرضه فلا يغر المقرض ولا يخدعه بالمواعيد بل يكشف حاله عنده ليقدم على إقراضه على بصيرة، ودين مثل هذا الرجل واجب أن يقضى من مال بيت المال ومن الزكاة، وقد قال تعالى: " ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله " قيل معناه: ليبع أحد ثوبيه. وقيل معناه: فليستقرض بجاهه، فذلك مما آتاه الله. وقال بعضهم: إن لله تعالى عباداً ينفقون على قدر بضائعهم، ولله عباد ينفقون على قدر حسن الظن بالله تعالى.

ومات بعضهم فأوصى بماله لثلاث طوائف: الأقوياء، والأسخياء، والأغنياء. فقيل: من هؤلاء؟ فقال: أما الأقوياء فهم أهل التوكل على الله تعالى، وأما الأسخياء فهم أهل حسن الظن بالله تعالى، وأما الأغنياء فهم أهل الانقطاع إلى الله تعالى.

فإذن مهما وجدت هذه الشروط فيه وفي المال وفي المعطي فليأخذه، وينبغي أن يرى ما يأخذه من الله لا من المعطي؛ لأن المعطي واسطة قد سخر للعطاء؛ وهو مضطر إليه بما سلط عليه من الدواعي والإرادات والاعتقادات وقد حكي أن بعض الناس دعا شقيقاً في خمسين من أصحابه، فوضع الرجل مائدة حسنة، فلما قعد قال لأصحابه: إن هذا الرجل يقول: من لم يرن صنعت هذا الطعام وقدمته فطعامي عليه حرام، فقاموا كلهم وخرجوا إلا شاباً منهم كان دونهم في الدرجة، فقال صاحب المنزل لشقيق: ما قصدت بهذا؟ قال أردت أن أختبر توحيد أصحابي كلهم.

وقال موسى عليه السلام: يا رب جعلت رزقي هكذا على أيدي بني إسرائيل يغديني هذا يوماً ويعشيني هذا ليلة، فأوحى الله تعالى إليه: هكذا أصنع بأوليائي، أجري أرزاقهم على أيدي البطالين من عبادي ليؤجروا فيهم. فلا ينبغي أن يرى المعطي إلا من حيث أنه مسخر مأجور من الله تعالى، نسأل الله حسن التوفيق لما يرضاه.

بيان تحريم السؤال من غير ضرورة وآداب الفقير المضطر فيه

اعلم أنه قد وردت مناه كثيرة في السؤال وتشديدات، وورد فيه أيضاً ما يدل على الرخصة إذ قال صلى الله عليه وسلم: "للسائل حق ولو جاء على فرس".
وفي الحديث: " ردوا السائل ولو بظلف محرق". ولو كان السؤال حراماً مطلقاً لما جاز إعانة المتعدي على عدوانه والإعطاء إعانة، فالكاشف للغطاء فيه أن السؤال حرام في الأصل وإنما يباح بضرورة أو حاجة مهمة قريبة من

الضرورة، فإن كان عنها بد فهو حرام، وإنما قلنا إن الأصل فيه التحريم لأنه لا ينفك عن ثلاثة أمور محرمة: الأول: إظهار الشكوى من الله تعالى، إذ السؤال إظهار للفقر وذكر لقصور نعمة الله تعالى عنه وهو عين الشكوى، وكما أن العبد المملوك لو سأل لكان سؤاله تشنيعاً على سيده، فكذلك سؤال العباد تشنيع على الله تعالى، وهذا ينبغي أن يحرم ولا يحل إلا لضرورة كما تحل الميتة.

الثاني: أن فيه إذلال السائل نفسه لغير الله تعالى وليس للمؤمن أن يذل نفسه لغير الله، بل عليه أن يذل نفسه لمولاه فإن فيه عزه، فأما سائر الخلق فإنهم عباد أمثاله فلا ينبغي أن يذل لهم إلا لضرورة، وفي السؤال ذل للسائل بالإضافة إلى المسؤول.

الثالث: أنه لا ينفك عن إيذاء المسؤول غالباً، لأنه ربما لا تسمح نفسه بالبذل عن طيب قلب منه، فإن بذل حياء من السائل أو رياء فهو حرام على الآخذ، وإن منع ربما استحيا وتأذى في نفسه بالمنع إذ يرى نفسه في صورة البخلاء، ففي البذل نقصان ماله وفي المنع نقصان جاهه، وكلاهما مؤذيان، والسائل هو السبب في الإيذاء والإيذاء حرام إلا بضرورة، ومهما فهمت هذه المحذورات الثلاث فقد فهمت قوله صلى الله عليه وسلم: " مسألة الناس من الفواحش ما أحل من الفواحش غيرها" فانظر كيف سماها فاحشة، ولا يخفى أن الفاحشة إنما تباح لضرورة كما يباح شرب الخمر لمن غص بلقمة وهو لا يجد غيره، وقال صلى الله عليه وسلم: " من سأل عن غنى فإنما يستكثر من جمر جهنم" " ومن سأل وله ما يغنيه جاء يوم القيامة ووجهه عظم يتقعقع وليس عليه لحم " وفي لفظ آخر "كانت مسألته خدوشاً وكدوحاً في وجهه" وهذه الألفاظ صريحة في التحريم والتشديد. وبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم قوماً على الإسلام فاشترط عليهم السمع والطاعة ثم قال لهم كلمة خفية " ولا تسألوا الناس شيئاً". وكان صلى الله عليه وسلم يأمر كثيراً بالتعفف عن السؤال ويقول: " من سألنا أعطيناه؛ ومن استغنى أغناه الله، ومن لم يسألنا فهو أحب إلينا".

وقال صلى الله عليه وسلم: " استغنوا عن الناس وما قل من السؤال فهو خير " قالوا: ومنك يا رسول الله؟ قال: "ومني".وسمع عمر رضي الله عنه سائلاً يسأل بعد المغرب فقال لواحد من قومه: عش الرجل، فعشاه ثم سمعه ثانياً يسأل فقال: ألم أقل لك عش الرجل؟ قال: قد عشيته، فنظر عمر فإذا تحت يده مخلاة مملوءة خبزاً فقال: لست سائلاً ولكنك تاجر، ثم أخذ المخلاة ونثرها بين يدي إبل الصدقة وضربه بالدرة وقال: لا تعد. ولولا أن سؤاله كان حراماً لما ضربه بالدرة ولا أخذ مخلاته، ولعل الفقيه الضعيف المنة الضيق الحوصلة يستبعد هذا من فعل عمر ويقول: أما ضربه فهو تأديب وقد ورد الشرع بالتعزير، وأما أخذه ماله فهو مصادرة والشرع لم يرد بالعقوبة بأخذ المال فكيف استجازه؟ وهو استبعاد مصدره القصور في الفقه، فأين يظهر فقه الفقهاء كلهم في حوصلة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وإطلاعه على أسرار دين الله ومصالح عباده؟ أفترى أنه لم يعلم أن المصادرة بالمال غير جائزة أو علم ذلك ولكن أقدم عليه غضباً في معصية الله وحاشاه، أو أراد الزجر بالمصلحة بغير طريق شرعها نبي الله، وهيهات فإذن ذلك أيضاً معصية، بل الفقه الذي لاح له فيه أنه رآه مستغنياً عن السؤال، وعلم أن من أعطاه شيئاً فإنما أعطاه على اعتقاد أنه محتاج، وقد كان كاذباً فلم يدخل في ملكه بأخذه مع التلبيس وعسر تمييز ذلك ورده إلى أصحابه، إذ لا يعرف أصحابه بأعيانهم، فبقي مالاً لا مالك له، فوجب صرفه إلى المصالح، وإبل الصدقة وعلفها من المصالح، ويتنزل أخذ السائل مع إظهار الحاجة كاذباً كأخذ العلوي بقوله إني علوي وهو كاذب. فإنه لا يملك ما يأخذه، كأخذ الصوفي الصالح وهو في الباطن مقارف لمعصية لو عرفها المعطي لما أعطاه - وقد ذكرنا في مواضع أن ما أخذوه على هذا الوجه لا يملكونه وهو حرام عليهم ويجب عليهم الرد إلى مالكه، فاستدل بفعل عمر رضي الله عنه على صحة هذا المعنى الذي يغفل عنه كثير من الفقهاء، وقد قررناه في مواضع، ولا تستدل بغفلتك عن هذا الفقه على بطلان فعل عمر.

فإذا عرفت أن السؤال يباح لضرورة، فاعلم أن الشيء إما أن يكون مضطراً إليه، أو محتاجاً إليه حاجة مهمة أو خفيفة، أو مستغنى عنه؛ فهذه أربعة أحوال: أما المضطر إليه فهو سؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتاً أو مرضاً وسؤال العاري وبدنه مكشوف ليس معه ما يواريه، وهو مباح مهما وجدت بقة الشروط في المسؤول بكونه مباحاً، والمسؤول منه بكونه راضياً في الباطن، وفي السائل بكونه عاجزاً عن الكسب، فإن القادر على الكسب وهو بطال له السؤال إلا إذا استغرق طلب العلم أوقاته، وكل من له خط فهو قادر على الكسب بالوراقة. وأما المستغني فهو الذي يطلب شيئاً وعنده مثله وأمثاله، فسؤاله حرام قطعاً، وهذان طرفان واضحان. وأما المحتاج حاجة مهمة فكالمريض الذي يحتاج إلى دواء ليس يظهر خوفه لو لم يستعمله ولكن لا يخلو عن خوف،

وكمن له جبة لا قميص تحتها في الشتاء وهو يتأذى بالبرد تأذياً لا ينتهي إلى حد الضرورة، وكذلك من يسأل لأجل الكراء وهو قادر على المشي بمشقة، فهذا أيضاً ينبغي أن تسترسل عليه الإباحة لأنها أيضاً حاجة محققة ولكن الصبر عنه أولى وهو بالسؤال تارك للأولى ولا يسمى سؤاله مكروهاً مهما صدق في السؤال وقال ليس تحت جبتي قميص والبرد يؤذيني أذىً أطيقه ولكن يشق علي، فإذا صدق فصدقه يكون كفارة لسؤاله إن شاء الله تعالى.

وأما الحاجة الخفيفة فمثل سؤال قميصاً ليلبسه فوق ثيابه عند خروجه ليستر الخروق من ثيابه عن أعين الناس، وكمن يسأل لأجل الأدم وهو واجد للخبز، وكمن يسأل الكراء لفرس في الطريق وهو واجد كراء الحمار، أو يسأل كراء المحمل وهو قادر على الراحلة، فهذا ونحوه إن كان فيه تلبيس حال بإظهار حاجة غير هذه فهو حرام، وإن لم يكن وكان فيه شيء من المحذورات الثلاثة من الشكوى والذل وإيذاء المسؤول فهو حرام، لأن مثل هذه الحاجة لا تصلح لأن تباح بها هذه المحذورات، وإن لم يكن فيها شيء من ذلك فهو مباح مع الكراهة. فإن قلت: فكيف يمكن إخلاء السؤال عن هذه المحذورات؟ فاعلم أن الشكوى تندفع بأن يظهر الشكر لله والاستغناء عن الخلق ولا يسأل سؤال محتاج، ولكن يقول: أنا مستغن بما أملكه ولكن تطالبني رعونة النفس بثوب فوق ثيابي وهو فضلة عن الحاجة وفضول من النفس، فيخرج به عن حد الشكوى، وأما الذل فبأن يسأل أباه أو قريبه أو صديقه الذي يعلم أنه لا ينقصه ذلك في عينه ولا يزدريه بسبب سؤاله، أو الرجل السخي الذي قد أعد ماله لمثل هذه المكارم فيفرح بوجود مثله ويتقلد منه منة بقبوله فيسقط عنه الذل بذلك، فإن الذل لازم للمنة لا محالة. وأما الإيذاء فسبيل الخلاص عنه أن لا يعين شخصاً بالسؤال بعينه بل يلقي الكلام عرضاً بحيث لا يقدم على البذل إلا متبرع بصدق الرغبة، وإن كان في القوم شخص مرموق لو لم يبذل لكان يلام، فهذا إيذاء، فإنه ربما يبذل خوفاً من الملامة، ويكون الأجب إليه في الباطن الخلاص لو قدر عليه من غير الملامة، وأما إذا كان يسأل شخصاً معيناً فينبغي أن لا يصرح بل يعرض تعريضاً يبقى له سبيلاً إلى التغافل إن أراد، فإذا لم يتغافل مع القدرة عليه فذلك لرغبته وأنه غير متأذٍ به، وينبغي أن يسأل من لا يستحيا منه لو رده أو تغافل عنه، فإن الحياء من السائل يؤذي كما أن الرياء مع غير السائل يؤذي.

فإن قلت: فإذا أخذ مع العلم بأن باعث المعطي هو الحياء منه أو من الحاضرين ولولاه لما ابتدأه به فهل هو حلال أو شبهة؟ فأقول: ذلك حرام محض لا خلاف فيه بين الأئمة، وحكمه حكم أخذ مال الغير بالضرب والمصادرة، إذا لا فرق بين أن يضرب ظاهر جلده بسياط الخشب أو يضرب باطن قلبه بسوط الحياء وخوف الملام، وضرب الباطن أشد نكاية في قلوب العقلاء، ولا يجوز أن يقال هو في الظاهر قد رضي به وقد قال صلى الله عليه وسلم: " إنما أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر" فإن هذه الضرورة القضاء في فصل الخصومات، إذ لا يمكن ردهم إلى البواطن وقرائن الأحوال، فاضطروا إلى الحكم بظاهر القول باللسان مع أنه ترجمان كثير الكذب، ولكن الضرورة دعت إليه، وهذا سؤال عما بين العبد وبين الله تعالى، والحاكم فيه أحكم الحاكمين، والقلوب عنده كالألسنة عند سائر الحكام فلا تنظر في مثل هذا إلا إلى قلبك وإن أفتوك وأفتوك، فإن المفتي معلم للقاضي والسلطان ليحكموا في عالم الشهادة، ومفتي القلوب هم علماء الآخرة، وبفتواهم النجاة من سلطان الآخرة، كما أن بفتوى الفقيه النجاة من سطوة سلطان الدنيا، فإذا ما أخذه مع الكراهة لا يملكه بينه وبين الله تعالى ويجب عليه رده إلى صاحبه، فإن كان يستحيي من أن يسترده ولم يسترده فعليه أن يثيبه على ذلك بما يساوي قيمته في معرض الهدية والمقابلة ليتفصى عن عهدته، فإن لم يقبل هديته فعليه أن يرد ذلك إلى ورثته، فإن تلف في يده فهو مضمون عليه بينه وبين الله تعالى وهو عاص بالتصرف فيه وبالسؤال الذي حصل به الأذى.

فإن قلت: فهذا أمر باطن يعسر الإطلاع عليه، فكيف السبيل إلى الخلاص منها فربما يظن السائل أنه راض ولا يكون هو في الباطن راضياً؟ فأقول: لهذا ترك المتقون السؤال رأساً فما كانوا يأخذون من أحد شيئاً أصلاً فكان بشر لا يأخذ من أحد أصلاً إلا من السري رحمة الله عليهما وقال: لأني علمت أنه يفرح بخروج المال من يده وأنا أعينه على ما يحب، وإنما عظم النكير في السؤال وتأكد الأمر بالتعفف لهذا، لأن الأذى إنما يحل بضرورة: وهو أن يكون السائل مشرفاً على الهلاك ولم يبق له سبيل إلى الخلاص ولم يجد من يعطيه من غير كراهة وأذى، فيباح له ذلك كما يباح له أكل لحم الخنزير وأكل لحم الميتة، فكان الامتناع طريق الورعين، ومن أرباب القلوب من كان واثقاً ببصيرته في الإطلاع على قرائن الأحوال، فكانوا يأخذون من بعض الناس دون البعض، ومنهم من كان لا يأخذ إلا من أصدقائه، ومنهم من كان يأخذ مما يعطي بعضاً ويرد بعضاً، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في الكبش والسمن والأقط، وكان هذا يأتيهم من غير سؤال، فإن ذلك لا يكون إلا عن رغبة، ولكن قد تكون رغبته طمعاً في جاه أو طلباً للرياء والسمعة فكانوا يحترزون من ذلك، فأما السؤال فقد امتنعوا عنه رأساً إلا في موضعين: أحدهما

الضرورة فقد سأل ثلاثة من الأنبياء في موضع الضرورة: سليمان، وموسى، والخضر عليهم السلام. ولا شك في أنهم ما سألوا إلا من علموا أنه يرغب في إعطائهم.

والثاني: السؤال من الأصدقاء والإخوان فقد كانوا يأخذون ما لهم بغير سؤال واستئذان، لأن أرباب القلوب علموا أن المطلوب رضا القلب لا نطق اللسان، وقد كانوا وثقوا بإخوانهم أنهم كانوا يفرحون بمباسطتهم، فإذا كانوا يسألون الإخوان عند شكهم في اقتدار إخوانهم على ما يريدونه وإلا فكانوا يستغنون عن السؤال، وحد إباحة السؤال أن تعلم أن المسؤول بصفة لو علم ما بك من الحاجة لابتدأك دون السؤال، فلا يكون لسؤالك تأثير إلا بتعريف حاجتك، فأما في تحريكه بالحياء وإثارة داعيته بالحيل فلا، ويتصدى للسائل حالة لا يشك فيها في الرضا بالباطن، وحالة لا يشك في الكراهة، ويعلم ذلك بقرينة الأحوال، فالأخذ في الحالة الأولى حلال طلق، وفي الثانية سحت، ويتردد بين الحالتين أحوال يشك فيها فليستفت قلبه فيها وليترك حزاز القلب فإنه الإثم، وليدع ما يريبه إلى ما لا يريبه، وإدراك ذلك بقرائن الأحوال سهل على من قويت فطنته وضعف حرصه وشهوته. فإن قوي الحرص وضعفت الفطنة تراءى له ما يوافق غرضه، فلا يتفطن للقرائن الدالة على الكراهة، وبهذه الدقائق يطلع على سر قوله صلى الله عليه وسلم: " إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه" وقد أوتي جوامع الكلم، لأن من لا كسب له ولا مال ورثه من كسب أبيه أو أحد قرابته فليأكل من أيدي الناس، وإن أعطى بغير سؤال فإنما يعطي بدينه، ومتى يكون باطنه بحيث لو انكشف باطنه لا يعطي بدينه فيكون ما يأخذه حراماً، وإن أعطي بسؤال فأين من يطيب قلبه بالعطاء إذا سئل؟ وأين من يقتصر في السؤال على حد الضرورة، فإذا فتشت أحوال من يأكل من أيدي الناس علمت أن جميع ما يأكله أو أكثره سحت وأن الطيب هو الكسب الذي اكتسبته بحلالك أنت أو مورثك، فإذن بعيد أن يجتمع الورع مع الأكل من أيدي الناس، فنسأل الله تعالى أن يقطع طمعنا عن غيره، وأن يغنينا بحلاله عن حرامه، وبفضله عمن سواه بمنه وسعة جوده، فإنه على ما يشاء قدير.

بيان مقدار الغنى المحرم للسؤال

اعلم أن قوله صلى الله عليه وسلم: " من سأل عن ظهر غنى فإنما يسأل جمراً فليستقل منه أو ليستكثر " صريح في التحريم، ولكن حد الغنى مشكل وتقديره عسير، وليس إلينا وضع المقادير، بل يستدرك ذلك بالتوقيف. وقد ورد في الحديث: " استغنوا بغنى الله تعالى عن غيره"، قالوا: وما هو؟ قال: غداء يوم وعشاء ليلة". وفي حديث آخر: " من سأل وله خمسون درهماً أو عدلها من الذهب فقد سأل إلحافاً" وورد في لفظ آخر " أربعون درهماً ". ومهما اختلفت التقديرات وصحت الأخبار فينبغي أن يقطع بورودها على أحوال مختلفة، فإن الحق في نفسه لا يكون إلا واحداً والتقدير ممتنع، وغاية الممكن فيه تقريب، ولا يتم ذلك إلا بتقسيم محيط بأحوال المحتاجين، فنقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا حق لابن آدم إلا في ثلاث: طعام يقيم صلبه، وثوب يواري به عورته، وبيت يسكنه فما زاد فهو حساب ". فلنجعل هذه الثلاث أصلاً في الحاجات لبيان أجناسها والنظر في الأجناس والمقادير والأوقات، فأما الأجناس فهي هذه الثلاث ويلحق بها ما في معناها حتى يلحق بها الكراء للمسافر إذا كان لا يقدر على المشي وكذلك ما يجري مجراه من المهمات ويلحق بنفسه عياله وولده وكل من تحت كفالته كالدابة أيضاً.

وأما المقادير فالثوب يراعى فيه ما يليق بذوي الدين وهو ثوب واحد وقميص ومنديل وسراويل ومداس وأما الثاني من كل جنس فهو مستغن عنه وليقس على هذا أثاث البيت جميعاً، ولا ينبغي أن يطلب رقة الثياب وكون الأواني من النحاس والصفر فيما يكفي فيه الخزف، فإن ذلك مستغنى عنه فيقتصر من العدد على واحد ومن النوع على أخس أجناسه ما لم يكن في غاية البعد عن العادة. وأما الطعام فقدره في اليوم مد وهو ما قدره الشرع ونوعه ما يقتات ولو كان من الشعير، والأدم على الدوام فضلة، وقطعة بالكلية إضرار، ففي طلبه في بعض الأحوال رخصة وأما المسكن فأقله ما يجزئ من حيث المقدار وذلك من غير زينة، فأما السؤال للزينة والتوسع فهو سؤال عن ظهر غنى، وأما بالإضافة إلى الأوقات فما يحتاج إليه في الحال من طعام يوم وليلة وثوب يلبسه ومأوى يكنه فلا شك فيه فأما سؤاله للمستقبل فهذا له ثلاث درجات: إحداها ما يحتاج إليه في غد، والثانية: ما يحتاج إليه في أربعين يوماً أو خمسين يوماً، والثالثة: ما يحتاج إليه في السنة. ولنقطع بأن من معه ما يكفيه له ولعياله إن كان له عيال لسنة فسؤاله حرام، فإن ذلك غاية الغنى وعليه ينزل التقدير بخمسين درهماً في الحديث، فإن خمسة دنانير تكفي المنفرد في السنة إذا اقتصد، أما المعيل فربما لا يكفيه ذلك وإن كان يحتاج إليه قبل السنة، فإن كان قادراً على السؤال ولا تفوته فرصته فلا يحل له لسؤال لأنه مستغن في الحال وربما لا يعيش إلى الغد فيكون قد سأل ما لا يحتاج فيكفيه غداء يوم وعشاء ليلة، وعليه ينزل الخبر الذي ورد في التقدير بهذا القدر، وإن كان يفوته فرصة السؤال ولا يجد من يعطيه لو أخر فيباح له السؤال، لأن أمل البقاء سنة غير بعيد فهو بتأخير السؤال خائف أن يبقى مضطراً عاجزاً عما يعينه، فإن

كان خوف العجز عن السؤال في المستقبل ضعيفاً وكان ما لأجله السؤال خارجاً عن محل الضرورة لم يخل سؤاله عن كراهية، وتكون كراهته بحسب درجات ضعف الاضطرار وخوف الفوت وتراخي المدة التي فيها يحتاج إلى السؤال، وكل ذلك لا يقبل الضبط وهو منوط باجتهاد العبد ونظره لنفسه بينه وبين الله تعالى، فيستفتي فيه قلبه ويعمل به إن سالكاً طريق الآخرة، وكل من كان يقينه أقوى وثقته بمجيء الرزق في المستقبل أتم وقناعته بقوت الوقت أظهر فدرجته عند الله تعالى أعلى، فلا يكون خوف الاستقبال وقد آتاك الله قوت يومك لك ولعيالك إلا من ضعف اليقين والإصغاء إلىتخويف الشيطان، وقد قال تعالى: " فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين "، وقال عز وجل: " الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً " والسؤال من الفحشاء التي أبيحت بالضرورة، وحال من يسأل لحاجة متراخية عن يومه وإن كان مما يحتاج إليه في السنة أشد من حال من ملك مالاً موروثاً وادخره لحاجة وراء السنة، وكلاهما مباحان في الفتوى الظاهرة ولكنهما صادران عن حب الدنيا وطول الأمل وعدم الثقة بفضل الله، وهذه الخصلة من أمهات المهلكات، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه.

بيان أحوال السائلين

كان بشر رحمه الله يقول: الفقراء ثلاثة: فقير لا يسأل وإن أعطي لا يأخذ، فهذا مع الروحانيين في عليين، وفقير لا يسأل وإن أعطي أخذ، فهذا مع المقربين في جنات الفردوس، وفقير يسأل عند الحاجة، فهذا مع الصادقين من أصحاب اليمين.

فإذن اتفق كلهم على ذم السؤال وعلى أنه مع الفاقة يحط المرتبة والدرجة.
قال شقيق البلخي لإبراهيم بن أدهم حين قدم عليه من خراسان: كيف تركت الفقراء من أصحابك؟ قال: تركتهم إن أعطوا شكروا، وإن منعوا صبروا - وظن أنه بترك السؤال قد أثنى عليه غاية الثناء - فقال شقيق: هكذا تركت كلاب بلخ عندنا، فقال إبراهيم: فكيف الفقراء عندك يا أبا إسحاق؟ فقال: الفقراء عندنا إن منعوا شكروا، وإن أعطوا آثروا، فقبل رأسه وقال: صدقت يا أستاذ. فإذن درجات أرباب الأحوال في الرضا والصبر والشكر والسؤال كثيرة، فلا بد لسالك طريق الآخرة من معرفتها ومعرفة انقسامها واختلاف درجاتها، فإنه إذا لم يعلم لم يقدر على الرقي من حضيضها إلى قلاعها، ومن أسفل سافلين إلى أعلى عليين، وقد خلق الإنسان في أحسن تقويم، ثم رد إلى أسفل سافلين، ثم أمر أن يترقى إلى أعلى عليين، ومن لا يميز بين السفل والعلو لا يقدر على الرقي قطعاً، وإنما الشك فيمن عرف ذلك، فإنه ربما لا يقدر عليه، وأرباب الأحوال قد تغلبهم حالة تقتضي أن يكون السؤال مزيداً لهم في درجاتهم ولكن بالإضافة إلى حالهم فإن مثل هذه الأعمال بالنيات، وذلك كما روي أن بعضهم رأى أبا إسحاق النوري رحمه الله يمد يده ويسأل الناس في بعض المواضع، قال: فاستعظمت ذلك واستقبحته له، فأتيت الجنيد رحمه الله فأخبرته بذلك فقال: لا يعظم هذا عليك، فإن النوري لم يسأل الناس إلا ليعطيهم، وإنما سألهم ليثيبهم في الآخرة فيؤجرون من حيث لا يضرهم، وكأنه أشار به إلى قوله صلى الله عليه وسلم: " يد المعطى هي العليا" فقال بعضهم: يد المعطى هي يد الآخذ للمال لأنه يعطى الثواب والقدر له لا لما يأخذه، ثم قال الجنيد: هات الميزان، فوزن مائة درهم ثم قبضه قبضة فألقاها على المائة ثم قال: احملها إليه، فقلت في نفسي: إنما يوزن الشيء ليعرف مقداره، فكيف خلط به مجهولاً وهو رجل حكيم؟ فذهبت بالصرة إلى النوري فقال: هات الميزان: فوزن مائة درهم وقال: ردها عليه وقل له: أنا لا أقبل منك أنت شيئاً وأخذ ما زاد على المائة قال: فزاد تعجبي، فسألته فقال: الجنيد رجل حكيم، يريد أن يأخذ الحبل بطرفيه: وزن المائة لنفسه طلباً لثواب الآخرة، وطرح عليها قبضة بلا وزن لله عز وجل، فأخذت ما كان لله تبارك وتعالى ورددت ما جعله لنفسه. قال: فرددتها إلى الجنيد فبكى وقال: أخذ ماله ورد مالنا الله المستعان، فانظر الآن كيف صفت قلوبهم وأحوالهم وكيف خلصت لله أعمالهم حتى كان يشاهد كل واحد منهم قلب صاحبه من غير مناطقة باللسان ولكن بتشاهد القلوب وتناجي الأسرار، وذلك نتيجة أكل الحلال وخلو القلب عن حب الدنيا والإقبال على الله تعالى بكنه الهمة، فمن أنكر ذلك قبل تجربة طريقه فهو جاهل، كمن ينكر مثلاً كون الدواء مسهلاً قبل شربه، ومن أنكره بعد أن طال اجتهاده حتى بذل كنه مجهوده ولم يصل فأنكر ذلك لغيره كان كمن شرب المسهل فلم يؤثر في حقه خاصة لعلة في باطنه فأخذ ينكر كون الدواء مسهلاً، وهذا وإن كان في الجهل دون الأول ولكنه ليس خالياً عن حظ وافٍ من الجهل، بل البصير أحد رجلين: إما رجل سالك الطريق فظهر له مثل ما ظهر لهم فهو صاحب الذوق والمعرفة وقد وصل إلى عين اليقين، وإما رجل لم يسلك الطريق أو سلك ولم يصل ولكنه آمن بذلك وصدق به فهو صاحب علم اليقين وإن لم يكن واصلاً إلى عين اليقين. ولعلم اليقين أيضاً رتبة وإن كان دون عين اليقين، ومن خلا عن علم اليقين فهو خارج عن زمرة المؤمنين ويحشر يوم القيامة في زمرة الجاحدين المستكبرين الذين هم قتلى القلوب الضعيفة وأتباع الشياطين. فنسأل الله تعالى أن يجعلنا من الراسخين في العلم القائلين: " آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب ".

الشطر الثاني من الكتاب

في الزهد

وفيه بيان حقيقة الزهد، وبيان فضيلة الزهد وأقسامه، وبيان تفصيل الزهد في المطعم والملبس والمسكن والأثاث وضروب المعيشة، وبيان علامة الزهد.

بيان حقيقة الزهد

اعلم أن الزهد في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين، وينتظم هذا المقام من علم وحال وعمل كسائر المقامات، لأن أبواب الإيمان كلها كما قال السلف ترجع إلى عقد وقول وعمل، وكأن القول لظهوره أقيم مقام الحال إذ به يظهر الحال الباطن فليس القول مراداً لعينه، وإن لم يكن صادراً عن حال سمي إسلاماً ولم يسم إيماناً فالعلم هو السبب في حال يجري مجرى المثمر، والعمل يجري من الحال مجرى الثمرة، فلنذكر الحال مع كلا طرفيه من العلم والعمل: أما الحال فنعني بها ما يسمى زهداً وهو عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه، فكل من عدل عن شيء إلى غيره بمعاوضة وبيع وغيره فإنما عدل عنه لرغبته عنه، وإنما عدل إلى غيره لرغبته في غيره، فحاله بالإضافة إلى المعدول عنه يسمى زهداً، وبالإضافة إلى المعدول إليه يسمى رغبة وحباً، فإذن يستدعي حال الزهد مرغوباً عنه ومرغوباً فيه هو خير من المرغوب عنه، وشرط المرغوب عنه أن يكون هو أيضاً مرغوباً فيه بوجه من الوجوه، فمن رغب عما ليس مطلوباً في نفسه لا يسمى زاهداً، إذ تارك الحجر والتراب وما أشبهه لا يسمى زاهداً، وإنما يسمى زاهداً من ترك الدراهم والدنانير لأن التراب والحجر ليسا في مظنة الرغبة، وشرط المرغوب فيه أن يكون عنده خيراً من المرغوب حتى تغلب هذه الرغبة، فالبائع لا يقدم على البيع إلا والمشتري عنده خير من البيع، فيكون حاله بالإضافة إلى المبيع زهداً فيه، وبالإضافة إلى العوض عنه رغبة فيه وحباً، ولذلك قال الله تعالى: " وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين " معناه باعوه، فقد يطلق الشراء بمعنى البيع ووصف أخوة يوسف بالزهد فيه، إذ طمعوا أن يخلو لهم وجه أبيهم؛ وكان ذلك عندهم أحب إليهم من يوسف فباعوه طمعاً في العوض، فإذن كل من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد في الدنيا، وكل من باع الآخرة بالدنيا فهو أيضاً زاهد ولكن في الآخرة، ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الزهد بمن يزهد في الدنيا، كما خصص اسم الإلحاد بمن يميل إلى الباطل خاصة وإن كان هو للميل في وضع اللسان، ولما كان الزهد رغبة عن محبوب بالجملة لن يتصور إلا بالعدول إلى شيء هو أحب منه، وإلا فترك المحبوب بغير الأحب محال، والذي يرغب عن كل ما سوى الله تعالى حتى الفراديس ولا يحب إلا الله تعالى فهو الزاهد المطلق، والذي يرغب عن كل حظ ينال في الدنيا ولم يزهد في مثل تلك الحظوظ في الآخرة بل طمع في الحور والقصور والأنهار والفواكه فهو أيضاً زاهد ولكنه دون الأول، والذي يترك من حظوظ الدنيا البعض دون البعض كالذي يترك المال دون الجاه أو يترك التوسع في الأكل ولا يترك التجمل في الزينة فلا يستحق اسم الزاهد مطلقاً، ودرجته في الزهاد درجة من يتوب عن بعض المعاصي في التائبين، وهو زهد صحيح، كما أن التوبة عن بعض المعاصي صحيحة، فإن التوبة عبارة عن ترك المحظورات، والزهد عبارة عن ترك المباحات التي هي حظ النفس، ولا يبعد أن يقدر على ترك بعض المباحات دون بعض كما لا يبعد ذلك في المحظورات، والمقتصر على ترك المحظورات لا يسمى زاهداً وإن كان قد زهد في المحظور وانصرف عنه، ولكن العادة تخصص هذا الاسم بترك المباحات، فإذن الزهد عبارة عن رغبته عن الدنيا عدولاً إلى الآخرة، أو عن غير الله تعالى عدولاً إلى الله تعالى وهي الدرجة العليا. وكما يشترط في المرغوب فيه أن يكون خيراً عنده فيشترط في المرغوب عنه أن يكون مقدوراً عليه، فإن ترك ما لا يقدر عليه محال، وبالترك يتبين زوال الرغبة، ولذلك قيل لابن المبارك: يا زاهد، فقال: الزاهد عمر بن عبد العزيز إذ جاءته الدنيا راغمة فتركها، وأما أنا ففيما ذا زهدت؟.وأما العلم الذي هو مثمر لهذه الحال فهو العلم بكون المتروك حقيراً بالإضافة إلى المأخوذ كعلم التاجر بأن العوض خير من المبيع فيرغب فيه، وما لم يتحقق هذا العلم لم يتصور أن تزول الرغبة عن المبيع، فكذلك من عرف أن ما عند الله باق وأن الآخرة خير وأبقى، أي لذاتها خير في أنفسها وأبقى، كما تكون الجواهر خيراً وأبقى من الثلج مثلاً. ولا يعسر على مالك الثلج بيعه بالجواهر واللآلئ، فهكذا مثال الدنيا والآخرة، فالدنيا كالثلج الموضوع في الشمس لا يزال في الذوبان إلى الانقراض، والآخرة كالجوهر الذي لا فناء له، فبقدر قوة اليقين والمعرفة بالتفاوت بين الدنيا والآخرة تقوى الرغبة في البيع والمعاملة، حتى إن من قوي يقينه يبيع نفسه وماله، كما قال الله تعالى: " إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة " ثم بين أن صفقتهم رابحة فقال تعالى: " فاستبشروا ببيعكم الذي

بايعتم به " فليس يحتاج من العلم في الزهد إلا إلى هذا القدر: وهو أن الآخرة خير وأبقى وقد يعلم ذلك من لا يقدر على ترك الدنيا، إما لضعف علمه ويقينه، وإما لاستيلاء الشهوة في الحال عليه وكونه مقهوراً في يد الشيطان، وإما لاغتراره بمواعيد الشيطان في التسويف يوماً بعد يوم إلى أن يختطفه الموت ولا يبقى معه إلا الحسرة بعد الفوت: وإلى تعريف خساسة الدنيا الإشارة بقوله تعالى: " قل متاع الدنيا قليل " وإلى تعريف نفاسة الآخرة الإشارة بقوله عز وجل: "وقال الذين أوتوا ويلكم ثواب الله خير " فنبه على أن العلم بنفاسة الجوهر هو المرغب عن عوضه، ولما لم يتصور الزهد إلا بمعارضةورغبة عن المحبوب في أحب منه قال رجل في دعائه: اللهم أرني الدنيا كما تراها، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: " لا تقل هكذا " ولكن قل: أرني الدنيا كما أريتها الصالحين من عبادك" وهذا لأن الله تعالى يراها حقيرة كما هي، وكل مخلوق فهو بالإضافة إلى جلاله حقير والعبد يراها حقيرة في نفسه بالإضافة إلى ما هو خير له، ولا يتصور أن يرى بائع الفرس وإن رغب عنه فرسه كما يرى الحشرات الأرض مثلاً، لأنه مستغن عن الحشرات أصلاً وليس مستغنياً عن الفرس، والله تعالى غني بذاته عن كل ما سواه، فيرى الكل في درجة واحدة بالإضافة إلى جلاله، ويراه متفاوتاً بالإضافة إلى غيره، والزاهد هو الذي يرى تفاوته بالإضافة إلى نفسه لا إلى غيره وأما العمل الصادر عن حال الزهد فهو ترك واحد لأنه بيع ومعاملة واستبدال للذي هو خير بالذي هو أدنى، فكما أن العمل الصادر من عقد البيع هو ترك المبيع وإخراجه من اليد وأخذ العوض، فكذلك الزهد يوجب ترك المزهود فيه بالكلية وهي الدنيا بأسرها مع أسبابها ومقدماتها وعلائقها، فيخرج من القلب حبها ويدخل حب الطاعات ويخرج من العين واليد ما أخرجه من القلب ويوظف على اليد والعين وسائر الجوارح وظائف الطاعات، وإلا كان كمن سلم المبيع ولم يأخذ الثمن، فإذا وفى شرط الجانبين في الآخذ والترك فليستبشر ببيعه الذي بايع به؛ فإن الذي بايعه بهذا البيع وفي بالعهد، فمن سلم حاضراً في غائب وسلم الحاضر وأخذ يسعى في طلب الغائب سلم إليه الغائب حين فراغه من سعيه إن كان العاقد ممن يوثق بصدقه وقدرته ووفائه بالعهد، وما دام ممسكاً للدنيا لا يصح زهده أصلاً، ولذلك لم يصف الله تعالى أخوة يوسف بالزهد في بنيامين وإن كانوا قد قالوا: " ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا " وعزموا على إبعاده كما عزموا على يوسف حتى تشفع فيه أحدهم فترك، ولا وصفه أيضاً بالزهد في يوسف عند العزم على إخراجه، بل عند التسليم والبيع، فعلامة الرغبة الإمساك، وعلامة الزهد الإخراج: فإن أخرجت عن اليد بعض الدنيا دون البعض فأنت زاهد فيما أخرجت فقط ولست زاهداً مطلقاً، وإن لم يكن لك مال ولم تساعدك الدنيا لم يتصور منك الزهد، لأن ما لا يقدر عليه لا يقوى على تركه، وربما يستهويك الشيطان بغروره ويخيل إليك أن الدنيا وإن لم تأتك فأنت زاهد فيها، فلا ينبغي أن تتدلى بحبل غروره دون أن تستوثق وتستظهر بموثق غليظ من الله، فإنك إذا لم تجرب حال القدرة فلا تثق بالقدرة على الترك عندها، فكم من ظان بنفسه كراهة المعاصي عند تعذرها، فلما تيسرت له أسبابه من غير مكدر ولا خوف من الخلق وقع فيها، وإذا كان هذا غرور النفس في المحظورات، فإياك أن تثق بوعدها في المباحات، والموثق الغليظ الذي تأخذه عليها، وأن تجربها مرة بعد مرة في حال القدرة، فإذا وفت بما وعدت على الدوام مع انتفاء الصوارف والأعذار ظاهراً وباطناً فلا بأس أن تثق بها وثوقاً ما، ولكن تكون من تغيرها أيضاً على حذر، فإنها سريعة النقض للعهد، قريبة الرجوع إلى مقتضى الطبع وبالجملة فلا أمان منها إلا عند الترك بالإضافة إلى ما ترك فقط وذلك عند القدرة. قال ابن أبي ليلى لابن شبرمة: ألا ترى إلى ابن الحائك هذا لا نفتي في مسألة إلا رد علينا - يعني أبا حنيفة، فقال ابن شبرمة: لا أدري أهو ابن الحائك أم ما هو؟ لكن اعلم أن الدنيا غدت إليه فهرب منها، وهربت منا فطلبناها، وكذلك قال جميع المسلمين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنا نحب ربنا ولو علمنا في أي شيء محبته لفعلناه حتى نزل قوله تعالى: " ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم".

قال ابن مسعود رحمه الله: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أنت منهم " - يعني من القليل - قال: وما عرفت فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى " منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة". واعلم أن ليس من الزهد ترك المال وبذله على سبيل السخاء والفتوة وعلى سبيل استمالة القلوب وعلى سبيل الطمع، فذلك كله من محاسن العادات ولكن لا مدخل لشيء منه في العبادات؛ وإنما الزهد أن تترك الدنيا لعلمك بحقارتها بالإضافة إلى نفاسة الآخرة؛ فأما كل نوع من الترك فإنه يتصور ممن لا يؤمن بالآخرة، فذلك قد يكون مروءة وفتوة وسخاء وحسن خلق، ولكن لا يكون زهداً إذ حسن الذكر وميل القلوب من حظوظ العاجلة وهي ألذ وأهنأ من المال، وكما أن ترك المال على سبيل السلم طمعاً في العوض ليس من الزهد، فكذلك تركه طمعاً في الذكر والثناء والاشتهار بالفتوة والسخاء واستثقالاً له لما في حفظ المال من المشقة والعناء. والحاجة إلى التذلل للسلاطين والأغنياء ليس من الزهد أصلاً، بل هو استعجال حظ آخر للنفس؛ بل الزاهد من أتته الدنيا راغمة صفواً عفواً وهو قادر على التنعم بها من غير نقصان جاه وقبح اسم ولا فوات حظ للنفس، فتركها خوفاً من أن يأنس بها، فيكون آنساً بغير الله ومحباً لما سوى الله، ويكون مشركاً في حب الله تعالى غيره. أو تركها طمعاً في ثواب الله في الآخرة فترك التمتع بأشربة الدنيا طمعاً

في أشربة الجنة، وترك التمتع بالسراري والنسوان طمعاً في الحور العين، وترك التفرج في البساتين طمعاً في بساتين الجنة وأشجارها، وترك التزين والتجمل بزينة الدنيا طمعاً في زينة الجنة، وترك المطاعم اللذيذة طمعاً في فواكه الجنة وخوفاً من أن يقال له: " أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا" فآثر في جميع ذلك ما وعد على ما تيسر له في الدنيا عفواً صفواً لعلمه بأن ما في الآخرة خير وأبقى، وأن ما سوى هذا فمعاملات دنيوية لا جدوى لها في الآخرة أصلاً.

بيان فضيلة الزهد

قال الله تعالى: " فخرج على قومه في زينته... إلى قوله تعالى... وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن " فنسب الزهد إلى العلماء ووصف أهله بالعلم وهو غاية الثناء، وقال تعالى: " أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا " وجاء في التفسير على الزهد في الدنيا. وقال عز وجل: " إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً ". قيل: معناه أيهم أزهد فيها، فوصف الزهد بأنه من أحسن الأعمال.

وقال تعالى: " من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب ".

وقال تعالى: " ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى".

وقال تعالى: "الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة " فوصف الكفار بذلك، فمفهومه أن المؤمن هو الذي يتصف بنقيضه وهو أن يستحب الآخرة على الحياة الدنيا.

وأما الأخبار: فما ورد منها في ذم الدنيا كثير، وقد أوردنا بعضها في كتاب ذم الدنيا مع ربع المهلكات، إذ حب الدنيا من المهلكات، ونحن الآن نقتصر على فضيلة بغض الدنيا فإنه من المنجيات، وهو المعني بالزهد، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من أصبح وهمه الدنيا شتت الله عليه أمره وفرق عليه ضيعته وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له. ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله له همه وحفظ عليه ضيعته، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة".

وقال صلى الله عليه وسلم: " إذا رأيتم العبد وقد أعطي صمتاً وزهداً في الدنيا فاقتربوا منه فإنه يلقى الحكمة". وقال تعالى: " ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً " ولذلك قيل من زهد في الدنيا أربعين يوماً أجرى الله ينابيع الحكمة في قلبه وأنطق بها لسانه.

وعن بعض الصحابة أنه قال: قلنا يا رسول الله، أي الناس خير؟ قال: "كل مؤمن محموم القلب صدوق اللسان" قلنا يا رسول الله وما محموم القلب؟ قال: " التقي النقي الذي لا غل فيه ولا غش ولا بغي ولا حسد " قلنا: يا رسول الله، فمن على أثره؟ قال: الذي يشنأ الدنيا ويحب الآخرة" ومفهوم هذا أن شر الناس الذي يحب الدنيا. وقال صلى الله عليه وسلم: " إن أردت أن يحبك الله فازهد في الدنيا" فجعل الزهد سبباً للمحبة، فمن أحبه الله تعالى فهو في أعلى الدرجات؛ فينبغي أن يكون الزهد في الدنيا من أفضل المقامات، ومفهومه أيضاً أن من محب الدنيا متعرض لبغض الله تعالى وفي خبر من طريق أهل البيت " الزهد والورع يجولان في القلوب كل ليلة، فإن صادفا قلباً فيه الإيمان والحياء أقاما فيه وإلا ارتحلا".
ولما قال حارثة لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أنا مؤمن حقاً قال: " وما حقيقة إيمانك؟" قال: عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي حجرها وذهبها، وكأني بالجنة والنار، وكأني بعرش ربي بارزاً، فقال صلى الله عليه وسلم: "عرفت فالزم عبد نور الله قلبه بالإيمان" فانظر كيف بدأ في إظهار حقيقة الإيمان بعزوف النفس عن الدنيا وقرنه باليقين، وكيف زكاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال: عبد نور الله قلبه بالإيمان.

ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى الشرح في قوله تعالى: " فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام " وقيل له: ما هذا الشرح؟ قال: " إن النور إذا دخل في القلب انشرح له الصدر وانفسح " قيل يا رسول الله وهل لذلك من علامة؟ قال: " نعم، التجافي عن دار الغرور؛ والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله" فانظر كيف جعل الزهد شرطاً للإسلام وهو التجافي عن دار الغرور؟.

وقال صلى الله عليه وسلم: " استحيوا من الله حق الحياء " قالوا: إنا لنستحيي منها تعالى، فقال: " ليس كذلك تبنون ما لا تسكنون وتجمعون ما لا تأكلون"، فبين أن ذلك يناقض الحياء من الله تعالى ولما قدم عليه بعض الوفود قالوا: إنا مؤمنون. قال: " وما علامة إيمانكم؟" فذكروا الصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء والرضا بمواقع القضاء وترك الشماتة بالمصيبة إذا نزلت بالأعداء، فقال عليه الصلاة والسلام: " إن كنتم كذلك فلا تجمعوا ما لا تأكلون ولا تبنوا ما لا تسكنون، ولا تنافسوا فيما عنه ترحلون" فجعل الزهد تكملة لإيمانهم.

وقال جابر رضي الله عنه: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: " من جاء بلا إله إلا الله لا يخلط بها غيرها وجبت له الجنة " فقام إليه علي كرم الله وجهه فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما لا يخلط بها غيرها؟ صفه لنا فسره لنا، فقال: " حب الدنيا طلباً لها وإتباعاً لها، وقوم يقولون قول الأنبياء ويعملون عمل الجبابرة، فمن جاء بلا إله إلا الله ليس فيها شيء من هذا وجبت له الجنة".

وفي الخبر: " السخاء من اليقين ولا يدخل النار موقن، والبخل من الشك ولا يدخل الجنة من شك".

وقال أيضاً: " السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس قريب من النار". والبخل ثمرة الرغبة في الدنيا، والسخاء ثمرة الزهد. والثناء ثناء على المثمر لا محالة.

وروي عن ابن المسيب عن أبي ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: " من زهد في الدنيا أدخل الله الحكمة قلبه فأنطق بها لسانه وعرفه داء الدنيا ودواءها وأخرجه منها سالماً إلى دار السلام". وروي أنه صلى الله عليه وسلم مر في أصحابه بعشار من النوق حفل وهي الحوامل وكانت من أحب أموالهم إليهم وأنفسها عندهم لأنها تجمع الظهر واللحم واللبن والوبر، ولعظمها في قلوبهم قال الله تعالى: " وإذا العشار عطلت " قال: فأعرض عنها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وغض بصره، فقيل له: يا رسول الله هذه أنفس أموالنا لم لا تنظر إليها؟ فقال: " قد نهاني الله عن ذلك " ثم تلا قوله تعالى: " ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به" الآية.

وروى مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله ألا تستطعم الله فيطعمك؟ قالت: وبكيت لما رأيت به من الجوع؛ فقال يا عائشة والذي نفسي بيده لو سألت ربي أن يجري معي جبال الدنيا ذهباً لأجراها حيث شئت من الأرض؛ ولكن اخترت جوع الدنيا على شبعها وفقر الدنيا على غناها وحزن الدنيا على فرحها؛ يا عائشة إن الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد؛ يا عائشة إن الله لم يرض لأولي العزم من الرسل إلا الصبر على مكروه الدنيا والصبر عن محبوبها، ثم لم يرض إلا أن يكلفني ما كلفهم، فقال: " فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل" والله ما لي بد من طاعته وإني والله لأصبرن كما صبروا بجهدي ولا قوة إلا بالله".

وروي عن عمر رضي الله عنه: أنه حين فتح عليه الفتوحات قالت له ابنته حفصة رضي الله عنها: البس ألين الثياب إذا وفدت عليك الوفود من الآفاق، ومر بصنعة الطعام تطعمه وتطعم من حضر، فقال عمر: يا حفصة، ألست تعلمين أن أعلم الناس بحال الرجل أهل بيته؟ فقالت: بلى. قال: ناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبث في النبوة كذا وكذا سنة لم يشبع هو ولا أهل بيته غدوة إلا جاعوا عشية ولا شبعوا عشية إلا جاعوا غدوة، وناشدتك الله، هل تعلمين أن النبي صلى الله عليه وسلم لبث في النبوة كذا كذا سنة لم يشبع من التمر هو وأهله حتى فتح الله عليه خيبر؟ وناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قربتم إليه يوماً طعاماً على مائدة فيها ارتفاع فشق ذلك عليه حتى تغير لونه ثم أمر بالمائدة فرفعت ووضع الطعام على دون ذلك أو وضع على الأرض؟ وناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا ينام على عباءة مثنية فثنيت له ليلة أربع طاقات فنام عليها فلما استيقظ قال: " منعتموني قيام الليلة بهذه العباءة اثنوها باثنتين كما كنتم تثنونها " وناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يضع ثيابه لتغسل فيأتيه بلال فيؤذنه بالصلاة فما يجد ثوباً يخرج به إلى الصلاة حتى تجف ثيابه فيخرج بها إلى الصلاة؟ وناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صنعت له امرأة من بني ظفر كساءين إزاراً وبعثت إليه بأحدهما قبل أن يبلغ الآخر فخرج إلى الصلاة وهو مشتمل به ليس عليه غيره وقد عقد طرفيه إلى عنقه فصلى كذلك؟ فما زال يقول حتى أبكاها وبكى عمر رضي الله عنه وانتحب حتى ظننا أن نفسه ستخرج.

وفي بعض الروايات زيادة من قول عمر وهو أنه قال: كان لي صاحبان سلكا طريقاً، فإن سلكت غير طريقهما سلك بي طريق غير طريقهما، وإني والله سأصبر على عيشهما الشديد لعلي أدرك معهما عيشهما الرغيد.

وعن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " لقد كان الأنبياء قبلي يبتلى أحدهم بالفقر فلا يلبس إلا العباءة، وإن كان أحدهم ليبتلى بالقمل حتى يقتله القمل وكان ذلك أحب إليهم من العطاء إليكم".

وعن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " لما ورد موسى عليه السلام ماء مدين كانت خضرة البقل ترى في بطنه من الهزال "؛ فهذا ما كان قد اختاره أنبياء الله ورسله وهم أعرف خلق الله بالله وبطريق الفوز في الآخرة.

وفي حديث عمر رضي الله عنه أنه قال: لما نزل قوله تعالى " والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله " قال صلى الله عليه وسلم: " تباً للدنيا تباً للدينار والدرهم " فقلنا: يا رسول الله نهانا الله عن كنز الذهب والفضة، فأي شيء ندخر؟ فقال صلى الله عليه وسلم: "ليتخذ أحدكم لساناً ذاكراً وقلباً شاكراً أو زوجة صالحة تعينه على أمر آخرته".

وفي حديث حذيفة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من آثر الدنيا على الآخرة ابتلاه الله بثلاث: هماً لا يفارق قلبه أبداً وفقراً لا يستغنى أبداً وحرصاً لا يشبع أبداً".

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: " لا يستكمل العبد الإيمان حتى يكون أن لا يعرف أحب إليه من أن يعرف؛ وحتى يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرته".

وقال المسيح صلى الله عليه وسلم: الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها. وقيل له: يا نبي الله لو أمرتنا أن نبني بيتاً نعبد الله فيه؟ قال: اذهبوا فابنوا بيتاً على الماء، فقالوا: كيف يستقيم بنيان على الماء؟ قال: وكيف تستقيم عبادة مع حب الدنيا؟.

وقال نبينا صلى الله عليه وسلم: " إن ربي عز وجل عرض علي أن يجعل لي بطحاء مكة ذهباً، فقلت لا يا رب ولكن أجوع يوماً وأشبع يوماً، فأما اليوم الذي أجوع فيه فأتضرع إليك وأدعوك، وأما اليوم الذي أشبع فيه فأحمدك وأثني عليك ".
وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم يمشي وجبريل معه فصعد على الصفا فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: " يا جبريل، والذي بعثك الحق ما أمسى لآل محمد كف سويق ولا سفة دقيق، فلم يكن كلامه بأسرع من أن سمع هدة من السماء أفظعته، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أمر الله القيامة أن تقوم؟" قال : لا، ولكن هذا إسرافيل عليه السلام قد نزل إليك حين سمع كلامك، فأتاه إسرافيل فقال: إن الله عز وجل سمع ما ذكرت فبعثني بمفاتيح الأرض وأمرني أن أعرض عليك إن أحببت أن أسير معك جبال تهامة زمرداً وياقوتاً وذهباً وفضة فعلت، وإن شئت نبياً ملكاً، وإن شئت نبياً عبداً. فأومأ إليه جبريل أن تواضع لله فقال: " نبياً عبداً " ثلاثاً.

وقال صلى الله عليه وسلم: " إذا أراد الله بعبد خيراً زهده في الدنيا ورغبه في الآخرة وبصره بعيوب نفسه".

وقال صلى الله عليه وسلم لرجل: ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس".
وقال صلوات الله عليه: " من أراد أن يؤتيه الله علماً بغير تعلم وهدى بغير هداية فليزهد في الدنيا".

وقال صلى الله عليه وسلم: " من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات، ومن خاف من النار لها عن الشهوات، ومن ترقب الموت ترك اللذات، ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات".

ويروى عن نبينا وعن المسيح عليهما السلام: " أربع لا يدركن إلا بتعب: الصمت وهو أول العبادة، والتواضع وكثرة الذكر، وقلة الشيء".

وإيراد جميع الأخبار الواردة في مدح بغض الدنيا وذم حبها لا يمكن، فإن الأنبياء ما بعثوا إلا لصرف الناس عن الدنيا إلى الآخرة وإليه يرجع أكثر كلامهم مع الخلق، وفيما أوردناه كفاية والله المستعان.

وأما الآثار؛ فقد جاء في الأثر: لا تزال لا إله إلا الله تدفع عن العباد سخط الله عز وجل ما لم يسألوا ما نقص من دنياهم. وفي لفظ آخر: ما لم يؤثروا صفقة دنياهم على دينهم، فإذا فعلوا ذلك وقالوا: لا إله إلا الله، قال الله تعالى: كذبتم، لستم بها صادقين.

وعن بعض الصحابة رضي الله عنهم أنه قال: تابعنا الأعمال كلها فلم نر في أمر الآخرة أبلغ من زهد في الدنيا. وقال بعض الصحابة لصدر من التابعين: أنتم أكثر أعمالاً واجتهاداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا خيراً منكم. قيل: ولم ذلك؟ قال: كانوا أزهد في الدنيا منكم. وقال عمر رضي الله عنه: الزهادة في الدنيا راحة القلب والجسد.
وقال بلال بن سعد: كفى به ذنباً أن الله تعالى يزهدنا في الدنيا ونحن نرغب فيها.
وقال رجل لسفيان: أشتهي أن أرى عالماً زاهداً، فقال: ويحك: تلك ضالة لا توجد.

وقال وهب بن منبه: إن للجنة ثمانية أبواب، فإذا صار أهل الجنة إليها جعل البوابون يقولون: وعزة ربنا لا يدخلها أحد قبل الزاهدين في الدنيا العاشقين للجنة.

وقال يوسف بن أسباط رحمه الله: إني لأشتهي من الله ثلاث خصال: أن أموت حين أموت وليس في ملكي درهم، ولا يكون علي دين ولا علي عظمي لحم فأعطى ذلك كله.

وروي أن بعض الخلفاء أرسل إلى الفقهاء بجوائز فقبلوها، وأرسل إلى الفضيل بعشرة آلاف فلم يقبلها، فقال له بنوه: قد قبل الفقهاء وأنت ترد على حالتك هذه فبكى الفضيل وقال: أتدرون ما مثلي ومثلكم؟ كمثل قوم كانت لهم بقرة يحرثون عليها، فلما هرمت ذبحوها لأجل أن ينتفعوا بجلدها، كذلك أنتم أردتم ذبحي على كبر سني، موتوا يا أهلي جوعاً خير لكم من أن تذبحوا فضيلاً!.
وقال عبيد بن عميرة كان المسيح ابن مريم عليه السلام يلبس الشعر ويأكل الشجر، وليس له ولد يموت ولا بيت يخرب ولا يدخر لغد، أينما أدركه المساء نام.

وقالت امرأة أبي حازم لأبي حازم: هذا الشتاء قد هجم علينا ولا بد لنا من الطعام والثياب والحطب! فقال لها أبو حازم: من هذا كله بد، ولكن لا بد لنا من الموت ثم البعث ثم الوقوف بين يدي الله تعالى ثم الجنة أو النار.

وقيل للحسن: لم لا تغسل ثيابك؟ قال: الأمر أعجل من ذلك.

وقال إبراهيم بن أدهم: قد حجبت قلوبنا بثلاثة أغطية، فلن يكشف للعبد اليقين حتى ترفع هذه الحجب: الفرح بالموجود، والحزن على المفقود، والسرور بالمدح، فإذا فرحت بالموجود فأنت حريص، وإذا حزنت على المفقود فأنت ساخط والساخط معذب، وإذا سررت بالمدح فأنت معجب والعجب يحبط العمل.
وقال ابن مسعود رضي الله عنه: ركعتين من زاهد قلبه خير له وأحب إلى الله من عبادة المتعبدين المجتهدين إلى آخر الدهر أبداً سرمداً.

وقال بعض السلف: نعمة الله علينا فيما صرف عنا أكثر من نعمته فيما صرف إلينا، وكأنه التفت إلى معنى قوله صلى الله عليه وسلم: " إن الله يحمي عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه كما تحمون مريضكم الطعام والشراب تخافون عليه"، فإذا فهم هذا علم أن النعمة في المنع المؤدي إلى الصحة أكبر منها في الإعطاء المؤدي إلى السقم.
وكان الثوري يقول: الدنيا دار التواء لا دار استواء، ودار ترح لا دار فرح، من عرفها لم يفرح برخاء ولم يحزن على شقاء.

وقال سهل: لا يخلص العمل لمتعبد حتى يفرغ من أربعة أشياء: الجوع، والعري، والفقر والذل.

وقال الحسن البصري: أدركت أقواماً وصحبت طوائف ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل، ولا يأسفون على شيء منها أدبر، ولهي كانت في أعينهم أهون من التراب، كان أحدهم يعيش خمسين سنة أو ستين سنة لم يطوله ثوب ولم ينصب له قدر، ولم يجعل بينه وبين الأرض شيئاً، ولا أمر من في بيته بصنعة طعام قط، فإذا كان الليل فقيام على أقدامهم، يفترشون وجوههم، تجري دموعهم على خدودهم، يناجون ربهم في فكاك رقابهم، كانوا إذا عملوا الحسنة دأبوا في شكرها وسألوا الله أن يقبلها، وإذا عملوا السيئة أحزنتهم وسألوا الله أن يغفرها لهم فلم يزالوا على ذلك، ووالله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة رحمة الله عليهم ورضوانه.

بيان درجات الزهد وأقسامه بالإضافة إلى نفسه وإلى المرغوب عنه، وإلى المرغوب فيه

اعلم أن الزهد في نفسه يتفاوت بحسب تفاوت قوته على درجات ثلاث: الدرجة الأولى وهي السفلى: منها أن يزهد في الدنيا وهو لها مشته وقلبه إليها مائل ونفسه إليها ملتفتة، ولكنه يجاهدها ويكفها، وهذا يسمى المتزهد، وهو مبدأ الزهد في حق من يصل إلى درجة الزهد بالكسب والاجتهاد، والمتزهد يذيب أولاً نفسه ثم كيسه والزاهد أولاً يذيب كيسه ثم يذيب نفسه في الطاعات لا في الصبر على ما فارقه، والمتزهد على خطر، فإنه ربما تغلبه نفسه وتجذبه شهوته فيعود إلى الدنيا وإلى الاستراحة بها في قليل أو كثير. الدرجة الثانية: الذي يترك الدنيا طوعاً لاستحقاره إياها بالإضافة إلى ما طمع فيه، كالذي يترك درهماً لأجل درهمين، فإنه لا يشق عليه ذلك وإن كان يحتاج إلى انتظار قليل، ولكن هذا الزاهد يرى لا محالة زهده ويلتفت إليه، كما يرى البائع المبيع ويلتفت إليه فيكاد يكون معجباً بنفسه وبزهده، ويظن في نفسه أنه ترك شيئاً له قدر لما هو أعظم قدراً منه، وهذا أيضاً نقصان. الدرجة الثالثة وهي العليا: أن يزهد طوعاً ويزهد في زهده فلا يرى زهده، إذ لا يرى أنه ترك شيئاً. أن عرف أن الدنيا لا شيء فيكون كمن ترك خزفة وأخذ جوهرة، فلا يرى ذلك معاوضة، ولا يرى نفسه تاركاً شيئاً والدنيا بالإضافة إلى الله تعالى نعيم الآخرة أخس من خزفة بالإضافة إلى جوهرة، فهذا هو الكمال في الزهد. وسببه كمال المعرفة، ومثل هذا الزهد آمن من خطر الالتفات إلى الدنيا، كما أن تارك الخزفة بالجوهرة أمن من طلب الإقالة في البيع.

قال أبو يزيد رحمه الله تعالى لأبي موسى عبد الرحيم: في أي شيء تتكلم؟ قال: في الزهد، قال: في أي شيء؟ قال: في الدنيا، فنفض يده وقال: ظننت أنه يتكلم في شيء، والدنيا لا شيء، إيش يزهد فيها.

ومثل من ترك الدنيا للآخرة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب المعمورة بالمشاهدات والمكاشفات مثل من منعه من باب الملك كلب على بابه فألقى إليه لقمة من خبز فشغله بنفسه ودخل الباب ونال القرب عند الملك حتى نفذ أمره في جميع مملكته، أفترى أنه يرى لنفسه يداً عند الملك بلقمة خبز ألقاها إلى كلبه في مقابلة ما قد ناله؟ فالشيطان كلب على باب الله تعالى يمنع الناس من الدخول مع أن الباب مفتوح والحجاب مرفوع، والدنيا كلقمة خبز إن أكلت فلذتها في حال المضغ وتنقضي على القرب بالابتلاع، ثم يبقى ثقلها في المعدة، ثم تنتهي إلى النتن والقذر، ثم يحتاج بعد ذلك إلى إخراج ذلك الثقل فمن تركها لينال عز الملك كيف يلتفت إليها ونسبة الدنيا كلها أعني ما يسلم لكل شخص منها وإن عمر مائة سنة بالإضافة إلى نعيم الآخرة أقل من لقمة بالإضافة إلى ملك الدنيا، إذ لا نسبة للمتناهي إلى ما لا نهاية له، والدنيا متناهية على القرب، ولو كانت تتمادى ألف ألف سنة عن كل كدر لكان لا نسبة لها إلى نعيم الأبد، فكيف ومدة العمر قصيرة ولذات الدنيا مكدرة غير صافية، فأي نسبة لها إلى نعيم الأبد، فإذن لا يلتفت الزاهد إلى زهده إلا إذا التفت إلى ما زهد فيه، ولا يلتفت إلى ما زهد فيه إلا لأنه يراه شيئاً معتداً به، ولا يراه شيئاً معتداً به إلا لقصور معرفته.

فهذا تفاوت درجات الزهد، وكل درجة من هذه أيضاً لها درجات، إذ تصبر المتزهد يختلف ويتفاوت أيضاً باختلاف قدر المشقة في الصبر، وكذلك درجة المعجب بزهده بقدر التفاته إلى زهده.

وأما انقسام الزهد بالإضافة إلى المرغوب فيه أيضاً على ثلاث درجات: الدرجة السفلى: أن يكون المرغوب فيه النجاة من النار ومن سائر الآلام كعذاب القبر، ومناقشة الحساب وخطر الصراط وسائر ما بين يدي العبد من الأهوال كما وردت به الأخبار، إذ فيها: " إن الرجل ليوقف في الحساب حتى لو وردت مائة بعير عطاشاً على عرقه لصدرت رواء" فهذا هو زهد الخائفين وكأنهم رضوا بالعدم لو أعدموا، فإن الخلاص من الألم يحصل بمجرد العدم.

الدرجة الثانية: أن يزهد رغبة في ثواب الله ونعيمه واللذات الموعودة في جنته من الحور والقصور وغيرها، وهذا زهد الراجين، فإن هؤلاء ما تركوا الدنيا قناعة بالعدم والخلاص من الألم بل طمعوا في وجود دائم ونعيم سرمد لا آخر له. الدرجة الثالثة وهي العليا: أن لا يكون له رغبة إلا في الله وفي لقائه، فلا يلتفت قلبه إلى الآلام ليقصد الخلاص منها ولا إلى اللذات ليقصد نيلها والظفر بها، بل هو مستغرق الهم بالله تعالى؛ وهو الذي أصبح وهمومه هم واحد؛ وهو الموحد الحقيقي الذي لا يطلب غير الله تعالى؛ لأن من طلب غير الله فقد عبده، وكل مطلوب معبود، وكل طالب عبد بالإضافة إلى مطلبه، وطلب غير الله من الشرك الخفي، وهذا زهد المحبين وهم العارفون لأنه لا يحب الله تعالى خاصة إلا من عرفه، وكما أن من عرف الدينار والدرهم وعلم أنه لا يقدر على الجمع بينهما لم يحب إلا الدينار، فكذلك من عرف الله وعرف لذة النظر إلى وجهه الكريم وعرف أن الجمع بين تلك اللذة وبين لذة التنعم بالحور العين والنظر إلى نقش القصور وخضرة الأشجار غير ممكن، فلا يحب إلا لذة النظر ولا يؤثر غيره، ولا تظنن أن أهل الجنة عند النظر إلى وجه الله تعالى يبقى للذة الحور والقصور متسع في قلوبهم، بل تلك اللذة بالإضافة إلى لذة نعيم أهل الجنة كلذة ملك الدنيا والاستيلاء على أطراف الأرض ورقاب الخلق بالإضافة إلى لذة الاستيلاء على عصفور واللعب به، والطالبون لنعيم الجنة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب كالصبي الطالب للعب بالعصفور التارك للذة الملك، وذلك لقصوره عن إدراك لذة الملك لا لأن اللعب بالعصفور في نفسه أعلى وألذ من الاستيلاء بطريق الملك على كافة الخلق.

وأما انقسامه بالإضافة إلى المرغوب عنه فقد كثرت فيه الأقاويل، ولعل المذكور فيه يزيد على مائة قول فلا نشتغل بنقل الأقاويل، ولكن نشير إلى كلام محيط بالتفاصيل حتى يتضح أن أكثر ما ذكر فيه قاصر عن الإحاطة بالكل. فنقول: المرغوب عنه بالزهد له إجمال وتفصيل، ولتفصيله مراتب بعضها أشرح لآحاد الأقسام وبعضها أجمل للجمل. أما الإجمال في الدرجة الأولى: فهو كل ما سوى الله، فينبغي أن يزهد فيه حتى في نفسه أيضاً، والإجمال في الدرجة الثانية: أن يزهد في كل للنفس فيها متعة، وهذا تناول جميع مقتضيات الطبع من الشهوة والغضب والكبر والرياسة والمال والجاه وغيرها. وفي الدرجة الثالثة: أن يزهد في المال والجاه وأسبابهما إذ إليهما ترجع جميع حظوظ النفس. وفي الدرجة الرابعة: أن يزهد في العلم والقدرة والدينار والدرهم والجاه إذ الأموال وإن كثرت أصنافها فيجمعها الدينار والدرهم والجاه وإن كثرت أسبابه فيرجع إلى العلم والقدرة وأعني به كل علم وقدرة ومقصودها ملك القلوب، إذ معنى الجاه هو ملك القلوب والقدرة عليها، كما أن معنى المال ملك الأعيان والقدرة عليها فإن جاوزت هذا التفصيل إلى شرح وتفصيل أبلغ من هذا فيكاد يخرج ما فيه الزهد عن الحصر. وقد ذكر الله تعالى في آية واحدة سبعة منها فقال: " زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة والدنيا " ثم رده في آية أخرى إلى خمسة فقال عز وجل: " اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد " ثم رده تعالى في موضع آخر إلى اثنين فقال تعالى: " وإنما الحياة الدنيا لعب ولهو " ثم رد الكل إلى واحد في موضع آخر فقال: " ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى " فالهوى لفظ يجمع جميع حظوظ النفس في الدنيا، فينبغي أن يكون الزهد فيه. وإذا فهمت طريق الإجمال والتفصيل عرفت أن البعض من هذه لا يخالف البعض وإنما يفارقه في الشرح والإجمال أخرى.

فالحاصل أن الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس كلها، ومهما رغب عن حظوظ النفس رغب عن البقاء في الدنيا فقصر أمله لا محالة، لأنه إنما يريد البقاء ليتمتع ويريد التمتع الدائم بإرادة البقاء؛ فإن من أراد شيئاً أراد دوامه، ولا معنى لحب الحياة إلا حب دوام ما هو موجود أو ممكن في هذه الحياة، فإذا رغب عنها لم يردها، ولذلك لما كتب عليهم القتال " قالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجلٍ قريب " فقال تعالى: " قل متاع الدنيا قليل "، أي لستم تريدون البقاء إلا لمتاع الدنيا، فظهر عند ذلك الزاهدون وانكشف حال المنافقين. أما الزاهدون المحبون لله تعالى فقاتلوا في سبيل الله كأنهم بنيان مرصوص وانتظروا إحدى الحسنيين، وكانوا إذا دعوا إلى القتال يستنشقون رائحة الجنة ويبادرون إليه مبادرة الظمآن إلى الماء البارد حرصاً على نصرة دين الله أو نيل رتبة الشهادة، وكان من مات منهم على فراشه يتحسر على فوت الشهادة، حتى إن خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه لما احتضر للموت على فراشه كان يقول: كم غررت بروحي وهجمت على الصفوف طمعاً في الشهادة وأنا الآن أموت موت العجائز. فلما مات عد على جسده ثمانمائة ثقب من آثار الجراحات، هكذا كان حال الصادقين في الإيمان رضي الله تعالى عنهم أجمعين. وأما المنافقون ففروا من الزحف خوفاً من الموت فقيل لهم: " إن الموت الذين تفرون منه فإنه ملاقيكم " فإيثارهم البقاء على الشهادة استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير، فأولئك الذين

اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين، وأما المخلصون فإن الله تعالى اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، فلما رأوا أنهم تركوا تمتع عشرين سنة مثلاً أو ثلاثين سنة بتمتع الأبد استبشروا ببيعهم الذي بايعوا به، فهذا بيان المزهود فيه.

وإذا فهمت هذا علمت أن ما ذكره المتكلمون في حد الزهد لم يشيروا به إلا إلى بعض أقسامه فذكر كل واحد منهم ما رآه غالباً على نفسه أو على من كان يخاطبه، فقال بشر رحمه الله تعالى: الزهد في الدنيا هو الزهد في الناس، وهذا إشارة إلى الزهد في الجاه خاصة.

وقال قاسم الجوعي: الزهد في الدنيا هو الزهد في الجوف، فبقدر ما تملك من بطنك كذلك تملك من الزهد، وهذا إشارة إلى الزهد في شهوة واحدة، ولعمري هي أغلب الشهرات على الأكثر وهي المهيجة لأكثر الشهوات. وقال الفضيل: الزهد في الدنيا هو القناعة، وهذا إشارة إلى المال خاصة.

وقال الثوري: الزهد هو قصر الأمل، وهو جامع لجميع الشهوات، فإن من يميل إلى الشهوات، فإن من يميل إلى الشهوات يحدث نفسه بالبقاء فيطول أمله، ومن قصر أمله فكأنه رغب عن الشهوات كلها.

وقال أويس: إذا خرج الزاهد يطلب ذهب الزهد عنه، وما قصد بهذا ولكن جعل التوكل شرطاً في الزهد.

وقال أويس أيضاً: الزهد هو ترك الطلب للمضمون، وهو إشارة إلى الرزق.

وقال أهل الحديث: حب الدنيا هو العمل بالرأي والمعقول، والزهد إنما هو أتباع العلم ولزوم السنة، وهذا إن أريد الرأي الفاسد والمعقول الذي يطلب به الجاه في الدنيا فهو صحيح، ولكنه إشارة إلى بعض ما هو من فضول الشهوات، فإن من العلوم ما لا فائدة فيه في الآخرة، وقد طولوها حتى ينقضي عمر الإنسان في الاشتغال بواحد منها، فشرط الزاهد أن يكون الفضول أول مرغوب عنه عنده، وقال الحسن: الزاهد إذا رأى أحداً قال: هذا أفضل مني، فذهب إلى أن الزهد هو التواضع، وهذا إشارة إلى نفي الجاه والعجب وهو بعض أقسام الزهد. وقال بعضهم: الزهد هو طلب الحلال، وأين هذا ممن يقول: الزهد هو ترك الطلب كما قال أويس، ولا شك في أنه أراد به ترك طلب الحلال وقد كان يوسف بن أسباط يقول: من صبر على الأذى وترك الشهوات وأكل الخبز من الحلال فقد أخذ بأصل الزهد. وفي الزهد أقاويل وراء ما نقلناه فلم نر في نقلها فائدة، فإن من طلب كشف حقائق الأمور من أقاويل الناس رآها مختلفة فلا يستفيد إلا الحيرة، وأما من انكشف له الحق في نفسه وأدركه بمشاهدة من قلبه لا بتلقف من سمعه، فقد وثق بالحق واطلع على قصور من قصر لقصور بصيرته، وعلى اقتصار من اقتصر مع كمال المعرفة لاقتصار حاجته، وهؤلاء كلهم اقتصروا لا لقصور في البصيرة لكنهم ذكروا ما ذكروه عند الحاجة، فلا جرم ذكروه بقدر الحاجة، والحاجات تختلف فلا جرم الكلمات تختلف، وقد يكون سبب الاقتصار الإخبار عن الحالة الراهنة التي هي مقام للعبد في نفسه والأحوال تختلف، فلا جرم الأقوال المخبرة عنها تختلف، وأما الحق في نفسه فلا يكون إلا واحداً ولا يتصور أن يختلف، وإنما الجامع من هذه الأقاويل الكامل في نفسه وإن لم يكن فيه تفصيل: ما قاله أبو سليمان الداراني إذ قال: سمعنا في الزهد كلاماً كثيراً والزهد عندنا ترك كل شيء يشغلك عن الله عز وجل، وقد فصل مرة وقال: من تزوج أو سافر في طلب المعيشة أو كتب الحديث فقد ركن إلى الدنيا فجعل جميع ذلك ضداً للزهد. وقد قرأ أبو سليمان قوله تعالى: " إلا من أتى الله بقلبٍ سليم " فقال: هو القلب الذي ليس فيه غير الله تعالى وقال: إنما زهدوا الدنيا لتفرغ قلوبهم من همومها للآخرة، فهذا بيان انقسام الزهد بالإضافة إلى أصناف المزهود فيه؛ فأما بالإضافة إلى أحكامه فينقسم إلى فرض ونفل وسلامة، كما قاله إبراهيم بن أدهم، فالفرض: هو الزهد في الحرام، والنفل: هو الزهد في الحلال، والسلامة: هو الزهد في الشبهات. وقد ذكرنا تفاصيل درجات الورع في كتاب الورع في كتاب الحلال والحرام وذلك من الزهد، إذ قيل لمالك بن أنس: ما الزهد؟ قال: التقوى، وأما بالإضافة إلى خفايا ما يتركه فلا نهاية للزهد فيه، إذ لا نهاية لما تتمتع به النفس في الخطرات واللحظات وسائر الحالات، لا سيما خفايا الرياء فإن ذلك لا يطلع عليه إلا سماسرة العلماء، بل الأحوال الظاهرة أيضاً درجات الزهد فيها لا تتناهى، فمن أقصى درجاته زهد عيسى عليه السلام إذ توسد حجراً في نومه فقال له الشيطان: أما كنت تركت الدنيا فما الذي بدا لك؟ قال: وما الذي تجدد؟ قال: توسدك الحجر. أي تنعمت برفع رأسك عن الأرض في النوم، فرمى الحجر وقال: خذه مع ما تركته لك.

وروي عن يحيى بن زكريا عليهما السلام أنه لبس المسوح حتى ثقب جلده تركاً للتنعم بلين اللباس واستراحة حس اللمس، فسألته أمه أن يلبس مكان المسح جبة من صوف ففعل، فأوحى الله تعالى إليه: يا يحيى، آثرت على الدنيا، فبكى ونزع الصوف وعاد إلى ما كان عليه.

وقال أحمد رحمه الله تعالى: الزهد زهد أويس، بلغ من العري أن جلس قوصرة.

وجلس عيسى عليه السلام في ظل حائط إنسان فأقامه صاحب الحائط، فقال: ما أقمتني أنت إنما أقامني الذي لم يرض لي أن أتنعم بظل الحائط. فإذن درجات الزهد ظاهراً وباطناً لا حصر لها، وأقل درجاته: الزهد في كل شبهة ومحظور. وقال قوم: الزهد هو الزهد في الحلال لا في الشبهة والمحظور، فليس ذلك من درجاته في شيء، ثم رأوا أنه لم يبق حلال في أموال الدنيا فلا يتصور الزهد الآن. فإن قلت: مهما كان الصحيح هو أن الزهد ترك ما سوى الله فكيف يتصور ذلك مع الأكل والشرب واللبس ومخالطة الناس ومكالمتهم وكل ذلك اشتغال بما سوى الله تعالى؟ فاعلم أن معنى الانصراف عن الدنيا إلى الله تعالى هو الإقبال بكل القلب عليه ذكراً وفكراً، ولا يتصور ذلك إلا مع البقاء، ولا بقاء إلا بضروريات النفس؛ فمهما اقتصرت من الدنيا على دفع المهلكات عن البدن وكان غرضك الاستعانة بالبدن على العبادة لم تكن مشتغلاً بغير الله؛ فإن ما لا يتوصل إلى الشيء إلا به فهو منه؛ فالمشتغل بعلف الناقة وبسقيها في طريق الحج ليس معرضاً عن الحج، ولكن ينبغي أن يكون بدنك في طريق الله مثل ناقتك في طريق الحج، ولا غرض لك في تنعم ناقتك باللذات، بل غرضك مقصور على دفع المهلكات عنها حتى تسير بك إلى مقصدك، فكذلك ينبغي أن تكون في صيانة بدنك عن الجوع والعطش المهلك بالأكل والشرب، وعن الحر والبرد المهلك باللباس والمسكن، فتقتصر على قدر الضرورة ولا تقصد التلذذ بل التقوى على طاعة الله تعالى، فذلك لا يناقض الزهد، بل هو شرط الزهد، وإن قلت: فلا بد وأن أتلذذ بالأكل عند الجوع؛ فاعلم أن ذلك لا يضرك إذا لم يكن قصدك التلذذ، فإن شارب الماء البارد قد يستلذ الشرب ويرجع حاصله إلى زوال ألم العطش، ومن يقضي حاجته قد يستريح بذلك ولكن لا يكون ذلك مقصوداً عنده ومطلوباً بالقصد، فلا يكون منصرفاً إليه؛ فالإنسان قد يستريح في قيام الليل بتنسم الأسحار وصوت الأطيار، ولكن إذا لم يقصد طلب موضع لهذه الاستراحة فما يصيبه من ذلك بغير قصد لا يضره ولقد كان في الخائفين من طلب موضعاً لا يصيبه فيه نسيم الأسحار خيفة من الاستراحة به وأنس القلب معه، فيكون فيه أنس بالدنيا ونقصان في الأنس بالله بقدر وقوع الأنس بغير الله، ولذلك كان داود الطائي له جب مكشوف فيه ماؤه فكان لا يرفعه من الشمس، ويشرب الماء الحار ويقول: من وجد لذة الماء البارد شق عليه مفارقة الدنيا، فهذه مخاوف المحتاطين والحزم في جميع ذلك الاحتياط، فإنه وإن كان شاقاً فمدته قريبة والاحتماء مدة يسيرة للتنعم على التأبيد، لا يثقل على أهل المعرفة القاهرين لأنفسهم بسياسة الشرع المعتصمين بعروة اليقين في معرفة المضادة التي بين الدنيا والدين، رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

بيان تفضيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة

اعلم أن ما الناس منهمكون فيه ينقسم إلى فضول وإلى مهم؛ فالفضول كالخيل المسومة مثلاً، إذ غالب الناس إنما يقتنيها للترفه بركوبها وهو قادر على المشي والمهم كالأكل والشرب، ولسنا نقدر على تفصيل أصناف الفضول فإن ذلك لا ينحصر، وإنما ينحصر المهم الضروري، والمهم أيضاً يتطرق إليه الفضول في مقداره وجنسه وأوقاته، فلا بد من بيان وجه الزهد فيه، والمهمات ستة أمور: المطعم، والملبس، والمسكن، وأثاثه، والمنكح، والمال. والجاه يطلب لأغراض. وهذه الستة من جملتها، وقد ذكرنا معنى الجاه وسبب حب الخلق وكيفية الاحتراز منه في كتاب الرياء من ربع المهلكات، ونحن الآن نقتصر على بيان هذه المهمات الستة: الأول المطعم: ولا بد للإنسان من قوت حلال يقيم صلبه ولكن له طول وعرض، فلا بد من قبض طوله وعرضه حتى يتم به الزهد؛ فأما طوله فبالإضافة إلى جملة العمر، فإن من يملك طعام يومه فلا يقنع به، وأما عرضه ففي مقدار الطعام وجنسه ووقت تناوله؛ أما طوله فلا يقصر إلا بقصر الأمل، وأقل درجات الزهد فيه الاقتصار على قدر دفع الجوع عند شدة الجوع وخوف المرض، ومن هذا حاله فإذا استقل بما تناوله لم يدخر من غدائه لعشائه، وهذه هي الدرجة العليا. الدرجة الثانية: أن يدخر لشهر أو أربعين يوماً. الدرجة الثالثة: أن يدخر لسنة فقط، وهذه رتبة ضعفاء الزهاد، ومن ادخر لأكثر من ذلك فتسميته زاهداً محال؛ لأن من أمل بقاء أكثر من سنة فهو طويل الأمل جداً فلا يتم منه الزهد إلا إذا لم يكن له كسب ولم يرض لنفسه الأخذ من أيدي الناس، كداود الطائي فإنه ورث عشرين ديناراً فأمسكها وأنفقها في عشرين سنة، فهذا لا يضاد أصل الزهد إلا عند من جعل التوكل شرط الزهد، وأما عرضه فبالإضافة إلى المقدار، وأقل درجاتهفي اليوم والليلة نصف رطل، وأوسطه رطل، وأعلاه مد واحد، وهو ما قدره الله تعالى في إطعام المسكين في الكفارة،

وما وراء ذلك فهو من اتساع البطن والاشتغال به، ومن لم يقدر على الاقتصار على مد لم يكن له من الزهد في البطن نصيب، وأما بالإضافة إلى الجنس فأقله كل ما يقوت، ولو الخبز من النخالة، وأوسطه خبز الشعير والذرة، وأعلاه خبز البر غير منخول، فإذا ميز من النخالة وصار حواري فقد دخل في التنعم وخرج عن آخر أبواب الزهد فضلاً عن أوائله. وأما الأدم: فأقله الملح أو البقل والخل، وأوسطه الزيت أو يسير من الأدهان أي دهن كان، وأعلاه اللحم أي لحم كان، وذلك في الأسبوع مرة أو مرتين، فإن صار دائماً أو أكثر من مرتين في الأسبوع خرج عن آخر أبواب الزهد فلم يكن صاحبه زاهداً في البطن أصلاً، وأما بالإضافة إلى الوقت فأقله في اليوم والليلة مرة وهو أن يكون صائماً، وأوسطه أن يصوم ويشرب ليلة ولا يأكل، ويأكل ليلة ولا يشرب، وأعلاه أن ينتهي إلى أن يطوي ثلاثة أيام أو أسبوعاً وما زاد عليه، وقد ذكرنا طريق تقليل الطعام وكسر شرهه في ربع المهلكات، ولينظر إلى أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة رضوان الله عليهم في كيفية زهدهم في المطاعم وتركهم الأدم.

قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: كانت تأتي علينا أربعون ليلة وما يوقد في بيت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم مصباح ولا نار. قيل لهم: فبم كنتم تعيشون؟ قالت: بالأسودين التمر والماء. وهذا ترك اللحم والمرقة والأدم.

وقال الحسن: كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يركب الحمار ويلبس الصوف وينتعل المخصوف ويلعق أصابعه ويأكل على الأرض. ويقول: " إنما أنا عبد آكل كما تأكل العبيد، وأجلس كما تجلس العبيد".
وقال المسيح عليه السلام: بحق أقول لكم، إنه من طلب الفردوس فخبز الشعير له والنوم على المزابل مع الكلاب كثير.

وقال الفضيل: ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر.

وكان المسيح صلى الله عليه وسلم يقول: يا بني إسرائيل، عليكم بالماء القراح والبقل البري وخبز الشعير، وإياكم وخبز البر، فإنكم لن تقوموا بشكره.

وقد ذكرنا سيرة الأنبياء والسلف في المطعم والمشرب في ربع المهلكات فلا نعيده.

ولما أتى النبي صلى الله عليه وسلم أهل قباء أتوه بشربة من لبن مشوبة بعسل، فوضع القدح من يده وقال: " أما إني لست أحرمه ولكن أتركه تواضعاً لله تعالى".

وأتي عمر رضي الله عنه بشربة من ماء بارد وعسل في يوم صائف فقال: اعزلوا عني حسابها.

وقد قال يحيى بن معاذ الرازي: الزاهد الصادق قوته ما وجد، ولباسه ما ستر، ومسكنه حيث أدرك، الدنيا سجنه، والقبر مضجعه، والخلو مجلسه، والاعتبار فكرته، والقرآن حديثه، والرب أنيسه، والذكر رفيقه، والزهد قرينه، والحزن شأنه، والحياء شعاره، والجوع إدامه، والحكمة كلامه، والتراب فراشه، والتقوى زاده، والصمت غنيمته والصبر معتمده، والتوكل حسبه، والعقل دليله، والعبادة حرفته والجنة مبلغه إن شاء الله تعالى. المهم الثاني الملبس: وأقل درجته ما يدفع الحر والبرد ويستر العورة. وهو كساء يتغطى به، وأوسطه قميص وقلنسوة ونعلان ، وأعلاه أن يكون معه منديل وسراويل. وما جاوز هذا من حيث المقدار فهو مجاوز حد الزهد. وشرط الزاهد: أن لا يكون له ثوب يلبسه إذا غسل ثوبه. بل يلزمه القعود في البيت. فإذا صار صاحب قميصين وسراويلين ومنديلين فقد خرج من جميع ألوان الزهد من حيث المقدار. أما الجنس فأقله المسوح الخشنة وأوسطه الصوف الخشن وأعلاه القطن الغليظ. وأما من حيث الوقت فأقصاه ما يستر سنة، وأقله ما يبقى يوماً حتى رقع بعضهم ثوبه بورق الشجر وإن كان يتسارع الجفاف إليه، وأوسطه ما يتماسك عليه شهراً وما يقاربه فطلب ما يبقى أكثر من سنة خروج إلى طول الأمل وهو مضاد للزهد، وإلا إذا كان المطلوب خشونته، ثم قد يتبع ذلك قوته ودوامه؛ فمن وجد زيادة من ذلك فينبغي أن يتصدق به، فإن أمسكه لم يكن زاهداً بل كان محباً للدنيا، ولينظر فيه إلى أحوال الأنبياء والصحابة كيف تركوا الملابس: قال أبو بردة: أخرجت لنا عائشة رضي الله تعالى عنها كساءً ملبداً وإزاراً غليظاً فقالت: قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذين.

وقال صلى الله عليه وسلم: " إن الله تعالى يحب المتبذل الذي لا يبالي ما لبس".

وقال عمرو بن الأسود العنسي: لا ألبس مشهوراً أبداً، ولا أنام بليل أبداً على دثار أبداً، ولا أركب على مأثور أبداً، ولا أملأ جوفي من طعام أبداً. فقال عمر: من سره أن ينظر إلى هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلينظر إلى عمرو بن الأسود.
وفي الخبر: " ما من عبد لبس ثوب شهرة إلا أعرض الله عنه حتى ينزعه وإن كان عنده حبيباً".

واشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوباً بأربعة دراهم.

وكانت قيمة ثوبيه عشرةوإزاره أربعة أذرع ونصفاً واشترى سراويل بثلاثة دراهم.

وكان يلبس شملتين بيضاوين من صوفوكانت تسمى حلة لأنها ثوبان من جنس واحد، وربما كان يلبس بردين يمانيين أو سحوليين من هذه الغلاظ.

وفي الخبر: كان قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه قميص زيات.

ولبس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً واحداً ثوباً سيراء من سندس قيمته مائتا درهمفكان أصحابه يلمسونه ويقولون: يا رسول الله أنزل عليك من الجنة، تعجباً - وكان أهداه إليه المقوقس ملك الإسكندرية فأراد أن يكرمه بلبسه - ثم نزعه وأرسل به إلى رجل من المشركين وصله به، ثم حرم لبس الحرير والديباج. وكأنه إنما لبسه أولاً تأكيداً للتحريم، كما لبس خاتماً من ذهب يوماً ثم نزعهفحرم لبسه على الرجال، وكما قال لعائشة في شأن بريرة: " اشترطي لأهلها الولاء" فلما اشترطته صعد عليه السلام المنبر فحرمه، وكما أباح المتعة ثلاثاً ثم حرمها لتأكيد أمر النكاح.

وقد صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في خميصة لها علم، فلما سلم قال: " شغلني النظر إلى هذه، اذهبوا بها إلى أبي جهم وائتوني بأنبجانيتهيعني كسائه. فاختار لبس الكساء على الثوب الناعم، وكان شراك نعله قد أخلق فأبدل بسير جديد فصلى فيه، فلما سلم قال: " أعيدوا الشراك الخلق وانزعوا هذا الجديد فإني نظرت إليه في الصلاة ".
ولبس خاتماً من ذهب ونظر إليه على المنبر نظرة فرمي به فقال: " شغلني هذا عنكم نظرة إليه ونظرة إليكم".

وكان صلى الله عليه وسلم قد احتذى مرة نعلين جديدين؛ فأعجبه حسنهما، فخر ساجداً وقال: " أعجبني حسنهما فتواضعت لربي خشية أن يمقتني ". ثم خرج بهما فدفعهما إلى أول مسكين رآه.

وعن سنان بن سعد قال: حيكت لرسول الله صلى الله عليه وسلم جبة من صوف أنمار وجعلت حاشيتها سوداء فلما لبسها قال: " انظروا ما أحسنها! ما ألينها!" قال فقام إليه أعرابي فقال: يا رسول الله هبها لي، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سئل شيئاً لم يبخل به، قال: فدفعها إليه وأمر أن يحاك له واحدة أخرى، فمات صلى الله عليه وسلم وهي في المحاكة.
وعن جابر قال: دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على فاطمة رضي الله تعالى عنها وهي تطحن بالرحى وعليها كساء من وبر الإبل، فلما نظر إليها بكى وقال: " يا فاطمة تجرعي مرارة الدنيا لنعيم الأبد "، فأنزل الله عليه: " ولسوف يعطيك ربك فترضى".وقال صلى الله عليه وسلم: " إن من خيار أمتي فيما أنبأني الملأ الأعلى قوماً يضحكون جهراً من سعة رحمه الله تعالى، ويبكون سراً من خوف عذابه، مؤنتهم على الناس خفيفة وعلى أنفسهم ثقيلة، يلبسون الخلقان ويتبعون الرهبان؛ أجسامهم في الأرض وأفئدتهم عند العرش" فهذه كانت سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الملابس وقد أوصى أمته عامة بإتباعه، إذا قال: " من أحبني فليستن بسنتي". وقال: " عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ".

وقال تعالى: " قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ".

وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة رضي الله عنها خاصة وقال: " إن أردت اللحوق بي فإياك ومجالسة الأغنياء ولا تنزعي ثوباً حتى ترقعيه".

وعد على قميص عمر رضي الله عنه اثنتا عشرة رقعة بعضها من أدم.

واشترى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ثوباً بثلاثة دراهم ولبسه وهو في الخلافة وقطع كميه من الرسغين وقال: الحمد لله الذي كساني هذا من رياشه.
وقال الثوري وغيره: البس من الثياب ما لا يشهرك عند العلماء ولا يحقرك عند الجهال، وكان يقول: إن الفقير ليمر بي وأنا أصلي فأدعه يجوز، ويمر بي واحد من أبناء الدنيا وعليه هذه البزة فأمقته ولا أدعه يجوز.

وقال بعضهم: قومت ثوبي سفيان ونعليه بدرهم وأربعة دوانق.

وقال ابن شبرمة: خير ثيابي ما خدمني وشرها ما خدمته.

وقال بعض السلف: البس من الثياب ما يخلطك بالسوقة، ولا تلبس منها ما يشهرك فينظر إليك.

وقال أبو سليمان الداراني: الثياب ثلاثة: ثوب لله وهو ما يستر العورة، وثوب للنفس وهو ما يطلب لينه، وثوب للناس وهو ما يطلب جوهره وحسنه.

وقال بعضهم: من رق ثوبه رق دينه.

وكان جمهور العلماء من التابعين قيمة ثيابهم ما بين العشرين إلى الثلاثين درهماً، وكان الخواص لا يلبس أكثر من قطعتين قميص ومئزر تحته، وربما يعطف ذيل قميصه على رأسه.

وقال بعض السلف: أول النسك الزي.

وفي الخبر: " البذاذة من الإيمان ".

وفي الخبر: " من ترك ثوب جمال وهو يقدر عليه تواضعاً لله تعالى وابتغاء لوجهه كان حقاً على الله أن يدخر له من عبقري الجنة في تخات الياقوت ".

وأوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه: قل لأوليائي لا يلبسوا ملابس أعدائي ولا يدخلوا مداخل أعدائي كما هم أعدائي.
ونظر رافع بن خديج إلى بشر بن مروان على منبر الكوفة وهو يعظ، فقال: انظروا إلى أميركم يعظ الناس وعليه ثياب الفساق - وكان عليه ثياب رقاق - وجاء عبد الله بن عامر بن ربيعة إلى أبي ذر في بزته، فجعل يتكلم في الزهد، فوضع أبي ذر راحته على فيه وجعل يضرط به، فغضب ابن عامر، فشكاه إلى عمر فقال: أنت صنعت بنفسك، تتكلم في الزهد بين يديه بهذه البزة.

وقال علي كرم الله وجهه: إن الله تعالى أخذ على أئمة الهدى أن يكونوا في مثل أدنى أحوال الناس ليقتدي بهم الغني ولا يزري بالفقير فقره.ولما عوتب في خشونة لباسه قال: هو أقرب إلى التواضع وأجدر أن يقتدي به المسلم.
ونهى صلى الله عليه وسلم عن التنعم وقال: " إن لله تعالى عباداً ليسوا بالمتنعمين".

ورؤي فضالة بن عبيد وهو والي مصر أشعث حافياً فقيل له: أنت الأمير وتفعل هذا؟ فقال: نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإرفاء، وأمرنا أن نحتفي أحياناً.

وقال علي لعمر رضي الله عنهما: إن أردت أن تلحق بصاحبيك فارفع القميص ونكس الإزار واخصف النعل وكل دون الشبع.

وقال عمر: اخشوشنوا وإياكم وزي العجم كسرى وقيصر.

وقال علي كرم الله وجهه: من تزيا بزي قوم فهو منهم.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن من شرار أمتي الذين غذوا بالنعيم يطلبون ألوان الطعام وألوان الثياب ويتشدقون في الكلام".

وقال صلى الله عليه وسلم: " أزرة المؤمن إلى أنصاف ساقيه، ولا جناح عليه فيما بينه وبين الكعبين، وما أسفل من ذلك ففي النار، ولا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره بطراً".

وقال أبو سليمان الداراني: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا يلبس الشعر من أمتي إلا مراء أو أحمق". وقال الأوزاعي: لباس الصوف في السفر سنة، وفي الحضر بدعة. ودخل محمد بن واسع على قتيبة بن مسلم وعليه جبة صوف؛ فقال له قتيبة: ما دعاك إلى مدرعة الصوف؟ فسكت، فقال: أكلمك ولا تجيبني! فقال: أكره أن أقول زهداً فأزكي نفسي، أو فقراً فأشكو ربي.

وقال أبو سليمان: لما اتخذ الله إبراهيم خليلاً أوحى إليه: أن وار عورتك من الأرض، وكان لا يتخذ من كل شيء إلا واحداً سوى السراويل؛ فإنه كان يتخذ سراويلين! فإذا غسل أحدهما لبس الآخر حتى لا يأتي عليه حال إلا وعورته مستورة، وقيل لسلمان الفارسي رضي الله عنه: ما لك لا تلبس الجيد من الثياب؟ فقال: وما للعبد والثوب الحسن، فإذا عتق فله والله ثياب لا تبلى أبداً.

ويروى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أنه كان له جبة شعر وكساء شعر يلبسهما من الليل إذا قام يصلي. وقال الحسن لفرقد السبخي: تحسب أن لك فضلاً على الناس بكسائك، بلغني أن أكثر أصحاب الأكيسة نفاقاً. وقال يحيى بن معين: رأيت أبا معاوية الأسود وهو يلتقط الخرق من المزابل ويغسلها ويلفقها ويلبسها، فقلت: إنك تكسى خيراً من هذا! فقال: ما ضرهم ما أصابهم في الدنيا جبر الله لهم بالجنة كل مصيبة، فجعل يحيى بن معين يحدث بها ويبكي.

المهم الثالث: المسكن، وللزهد فيه أيضاً ثلاث درجات: أعلاها أن لا يطلب موضعاً خاصاً لنفسه فيقنع بزاويا المساجد كأصحاب الصفة. وأوسطها: أن لا يطلب موضعاً خاصاً لنفسه مثل كوخ مبني من سعف أو خص أو ما يشبهه، وأدناها أن يطلب حجرة مبنية إما بشراء أو إجارة؛ فإن كان قدر سعة المسكن على قدر حاجته من غير زيادة ولم يكن فيه زينة لم يخرجه هذا القدر عن آخر درجات الزهد؛ فإن طلب التشييد والتجصيص والسعة وارتفاع السقف أكثر من ستة أذرع فقد جاوز بالكلية حد للزهد في المسكن، فاختلاف جنس البناء بأن يكون من الجص أو القصب أو بالطين أو بالآجر، واختلاف قدره بالسعة والضيق، واختلاف طوله بالإضافة إلى الأوقات بأن يكون مملوكاً أو مستأجراً أو مستعاراً، والزهد مدخل في جميع ذلك. وبالجملة كل ما يراد للضرورة فلا ينبغي أن يجاوز حد الضرورة، وقدر الضرورة من الدنيا آلة الدين ووسيلته، وما جاوز ذلك فهو مضاد للدين والغرض من المسكن دفع المطر والبرد ودفع الأعين والأذى، وأقل الدرجات فيه معلوم، وما زاد عليه فهو الفضول والفضول كله من الدنيا وطالب الفضول والساعي له بعيد من الزهد جداً، وقد قيل: أول شيء ظهر من طول الأمل بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم التدريز والتشييد، يعني بالتدريز: كف دروز الثياب فإنها كانت تشل شلاً والتشييد: هو البنيان بالجص والآجر، وإنما كانوا يبنون بالسعف والجريد.

وقد جاء في الخبر: " يأتي على الناس زمان يوشون ثيابهم كما توشى البرود اليمانية ".

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم العباس أن يهدم علية كان قد علا بها.

ومر عليه السلام بجنبذة معلاة فقال: " لمن هذه؟" قالوا: لفلان، فلما جاءه الرجل أعرض عنه فلم يكن يقبل عليه كما كان فسأل الرجل أصحابه عن تغيير وجهه صلى الله عليه وسلم فأخبر، فذهب فهدمها؛ فمر رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بالموضع فلم يرها. فأخبر بأنه هدمها فدعا له بخير.

وقال الحسن: مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: " إذا أراد الله بعبد شراً أهلك ماله في الماء والطين".

وقال عبد الله بن عمر: مر علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خصاً، فقال: "ما هذا؟" قلنا خص لنا قد وهى فقال: " أرى الأمر أعجل من ذلك".

واتخذ نوحاً عليه السلام بيتاً من قصب. فقيل له: لو بنيت؟ فقال: هذا كثير لمن يموت.
وقال الحسن: دخلنا على صفوان بن محيريز وهو في بيت من قصب قد مال عليه، فقيل له: لو أصلحته؟ فقال: كم من رجل قد مات وهذا قائم على حاله.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: " من بنى فوق ما يكفيه كلف أن يحمله يوم القيامة".

وفي الخبر: " كل نفقة في الأرض يؤجر عليها إلا ما أنفقه في الماء والطين".

وفي قوله تعالى: " تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً " إنه الرياسة والتطاول في البنيان.

وقال صلى الله عليه وسلم: " كل بناء وبال على صاحبه يوم القيامة إلا ما أكن من حر أو برد".وقال صلى الله عليه وسلم للرجل الذي شكا إليه ضيق منزله: " اتسع في السماء" أي في الجنة.
ونظر عمر رضي الله عنه في طريق الشام إلى صرح قد بني بجص وآجر، فكبر وقال: ما كنت أظن أن يكون في هذه الأمة من يبني بنيان هامان لفرعون؛ يعني قول فرعون " فأوقد لي يا هامان على الطين " يعني به الآجر، ويقال: إن فرعون هو أول من بني له بالجص والآجر، وأول من عمله هامان، ثم تبعهما الجبابرة، وهذا هو الزخرف.

ورأى بعض السلف جامعاً في بعض الأمصار فقال: أدركت هذا المسجد مبنياً من الجريد والسعف، ثم رأيته من رهص، ثم رأيته الآن مبنياً باللبن، فكان أصحاب السعف خيراً من أصحاب الرهص خير من أصحاب اللبن. وكان من السلف من يبني داره مراراً في مدة عمره لضعف بنائه وقصر أمله وزهده في إحكام البنيان، وكان منهم من إذا حج أو غزا نزع بيته أو وهبه لجيرانه، فإذا رجع أعاده، وكانت بيوتهم من الحشيش والجلود وهي عادة العرب الآن ببلاد اليمن، وكان ارتفاع بناء السقف قامة وبسطة.

وقال الحسن: كنت إذا دخلت بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضربت بيدي إلى السقف.

وقال عمرو بن دينار: إذا أعلى العبد البناء فوق ستة أذرع ناداه ملك: إلى أين يا أفسق الفاسقين؟.

وقد نهى سفيان عن النظر إلى بناء مشيد وقال: لولا نظر الناس لما شيدوا فالنظر إليه معين عليه.

وقال الفضيل: إني لم أعجب ممن بنى وترك، ولكن أعجب ممن نظر ولم يعتبر.
وقال ابن مسعود رضي الله عنه: يأتي قوم يرفعون الطين ويضعون الدين ويستعملون البرازين. يصلون إلى قبلتكم ويموتون على غير دينكم.

المهم الرابع: أثاث البيت، وللزهد فيه أيضاً درجات: أعلاها حال عيسى المسيح صلوات الله عليه وسلامه وعلى كبد عبد مصطفى، إذ كان لا يصحبه إلا مشط وكوز فرأى إنساناً يمشط لحيته بأصابعه، فرمى بالمشط، ورأى آخر يشرب من النهر بكفيه فرمى الكوز، وهذا حكم كل أثاث، فإنه إنما يراد المقصود، فإذا استغنى عنه فهو وبال في الدنيا والآخرة، وما لا يستغنى عنه فيقتصر فيه على أقل الدرجات وهو الخزف في كل ما يكفي فيه الخزف ولا يبالي بأن يكون مكسور الطرف إذا كان المقصود يحصل به.

وأوسطها أن يكون له أثاث بقدر الحاجة صحيح في نفسه ولكن يستعمل الآلة الواحدة في مقاصد، كالذي معه قصعة يأكل فيها ويشرب فيها ويحفظ المتاع فيها، وكان السلف يستحبون استعمال آلة واحدة في أشياء للتخفيف.

وأدناها أن يكون له بعدد كل حاجة آلة من الجنس النازل الخسيس، فإن زاد في العدد أو في نفاسة الجنس خرج عن جميع أبواب الزهد وركن إلى طلب الفضول، ولينظر إلى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، فقد قالت عائشة رضي الله عنها: كان ضجاع رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ينام عليه وسادة من أدم حشوها ليف.

وقال الفضيل: ما كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عباءة مثنية ووسادة من أدم حشوها ليف.

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم على سرير مرمول بشريط، فجلس فرأى أثر الشريط في جنبه عليه السلام، فدمعت عينا عمر، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: " ما الذي أبكاك يا ابن الخطاب؟" قال: ذكرت كسرى وقيصر وما هما فيه من الملك، وذكرتك وأنت حبيب الله وصفيه ورسوله نائم على سرير مرمول بالشريط؟ فقال صلى الله عليه وسلم: " أما ترضى يا عمر أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة " قال: بلى يا رسول الله؟ قال: "فذلك كذلك".

ودخل رجل على أبي ذر فجعل يقلب بصره في بيته فقال: يا أبا ذر، ما أرى في بيتك متاعاً ولا غير ذلك من الأثاث فقال: إن لنا بيتاً نوجه إليه مصالح متاعنا، فقال: إنه لا بد لك من متاع ما دمت ههنا، فقال: إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه.

ولما قدم عمير بن سعيد أمير حمص على عمر رضي الله عنهما قال له: ما معك من الدنيا؟ فقال: معي عصاي أتوكأ بها وأقتل بها حية إن لقيتها، ومعي جرابي أحمل فيه طعامي، ومعي قصعتي آكل فيها رأسي وثوبي، ومعي مطهرتي أحمل فيها شرابي وطهوري للصلاة، فما كان بعد هذا من الدنيا فهو تبع لما معي، فقال عمر: صدقت رحمك الله. وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر فدخل على فاطمة رضي الله عنها فرأى على باب منزلها ستر وفي يديها قلبين من فضة، فرجع، فدخل عليها أبو رافع وهي تبكي، فأخبرته برجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسأله أبو رافع فقال: " من أجل الستر والسوارين " فأرسلت بهما بلالاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالت: قد تصدقت بهما فضعهما حيث ترى، فقال: " اذهب فبعه وادفعه إلى أهل الصفة " فباع القلبين بدرهمين ونصف وتصدق بهما عليهم، فدخل عليها صلى الله عليه وسلم فقال: " بأبي أنت قد أحسنت". ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم على باب عائشة ستراً فهتكه وقال: " كلما رأيته ذكرت الدنيا أرسلي به إلى آل فلان".

وفرشت له عائشة ذات ليلة فراشاً جديداً وقد كان صلى الله عليه وسلم ينام على عباءة مثنية، فما زال يتقلب ليلته، فلما أصبح قال لها: " أعيدي العباءة الخلقة ونحي هذا الفراش عني قد أسهرني الليلة". وكذلك أتته دنانير خمسة أو ستة ليلاً فبيتها، فسهر ليلته حتى أخرجها من آخر الليل. قالت عائشة رضي الله عنها: فنام حينئذ حتى سمعت غطيطه ثم قال: " ما ظن محمد بربه لو لقي الله وهذه عنده".

وقال الحسن: أدركت سبعين من الأخيار ما لأحدهم إلا ثوبه وما وضع أحدهم بينه وبين الأرض ثوباً قط: كان إذا أراد النوم باشر الأرض بجسمه وجعل ثوبه فوقه.

المهم الخامس: المنكح، وقد قال قائلون: لا معنى للزهد في أصل النكاح ولا في كثرته، وإليه ذهب سهل بن عبد الله وقال: قد حبب إلى سيد الزاهدين النساء فكيف تزهد فيهن؟ ووافقه على هذا القول ابن عيينة وقال: كان أزهد الصحابة علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكان له أربع نسوة وبضع عشرة سرية. والصحيح ما قاله أبو سليمان الداراني رحمه الله إذ قال: كل ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشؤوم، والمرأة قد تكون شاغلاً عن الله. وكشف الحق فيه: أنه قد تكون العزوبة أفضل في بعض الأحوال كما سبق في كتاب النكاح، فيكون ترك النكاح من الزهد، وحيث يكون النكاح أفضل لدفع الشهوة الغالبة فهو واجب، فكيف يكون تركه من الزهد؟ وإن لم يكن عليه آفة في تركه ولا فعله ولكن ترك النكاح احترازاً عن ميل القلب إليهن والأنس بهن بحيث يشتغل عن ذكر الله فترك ذلك من الزهد، فإن علم أن المرأة لا تشغله عن ذكر الله ولكن ترك ذلك احترازاً من لذة النظر والمضاجعة والمواقعة فليس هذا من الزهد أصلاً، فإن الولد مقصود لبقاء نسله، وتكثير أمة محمد صلى الله عليه وسلم من القربات، واللذة التي تلحق الإنسان فيما هو من ضرورة الوجود لا تضره، إذا لم تكن هي المقصد والمطلب، وهذا كمن ترك أكل الخبز وشرب الماء احترازاً من لذة الأكل والشرب وليس ذلك من الزهد في شيء، لأن في ترك ذلك فوات بدنه، فكذلك في ترك النكاح انقطاع نسله، فلا يجوز أن يترك النكاح زهداً في لذته من غير خوف آفة أخرى، وهذا ما عناه سهل لا محالة، ولأجله نكح رسول الله صلى الله عليه وسلم. وإذا ثبت هذا فمن حاله حال رسول الله صلى الله عليه وسلم في أنه لا يشغله كثرة النسوان ولا اشتغال القلب بإصلاحهن والإنفاق عليهنفلا معنى لزهده فيهن حذراً لذة الوقاع والنظر، ولكن أنى يتصور ذلك لغير الأنبياء والأولياء، فأكثر الناس يشغلهم كثرة النسوان، فينبغي أن يترك الأصل إن كان يشغله، وإن لم يشغله وكان يخاف من أن تشغله الكثرة منهن أو جمال المرأة فلينكح واحدة غير جميلة وليراع قلبه في ذلك.

قال أبو سليمان: الزهد في النساء: أن يختار المرأة الدون أو اليتيمة على المرأة الجميلة والشريفة. وقال الجنيد رحمه الله: أحب للمريد المبتدي أن لا يشغل قلبه بثلاث وإلا تغير حاله: التكسب، وطلب الحديث والتزوج. وقال: أحب للصوفي أن لا يكتب ولا يقرأ لأنه أجمع لهمه، فإذا ظهر أن لذة النكاح كلذة الأكل فما شغل عن الله فهو محذور فيهما جميعاً. المهم السادس: ما يكون وسيلة إلى هذه الخمسة، وهو المال والجاه: أما الجاه فمعناه ملك القلوب بطلب محل فيها ليتوصل به إلى الاستعانة في الأغراض والأعمال، وكل من لا يقدر على القيام بنفسه في جميع حاجته وافتقر إلى من يخدمه افتقر إلى جاه لا محالة في قلب خادمه، لأنه إن لم يكن له عنده محل وقدر لم يقم بخدمته، وقيام القدر والمحل في القلوب هو الجاه؛ وهذا له أول قريب ولكن يتمادى به إلى هاوية لا عمق لها، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، وإنما يحتاج إلى المحل في القلوب إما لجلب نفع أو لدفع ضر أو لخلاص من ظلم، فأما النفع فيغني عنه المال فإن من يخدم بأجرة يخدم وإن لم يكن عنده للمستأجر قدر، وإنما يحتاج إلى الجاه في قلب من يخدم بغير أجرة، وأما دفع الضر فيحتاج لأجله إلى الجاه في بلد لا يكمل فيه العدل، أو يكون بين جيران يظلمونه ولا يقدر على دفع شرهم إلا بمحل له في قلوبهم أو محل له عند السلطان، وقدر الحاجة فيه لا ينضبط لا سيما إذا انضم إليه الخوف وسوء الظن بالعواقب، والخائض في طلب الجاه سالك طريق الهلاك، بل حق الزاهد أن لا يسعى لطلب المحل في القلوب أصلاً فإن اشتغاله بالدين والعبادة يمهد له من المحل في القلوب ما يدفع به عنه الأذى ولو كان بين الكفار، فكيف بين المسلمين، فأما التوهمات والتقديرات التي تحوج إلى زيادة في الجاه على الحاصل بغير كسب فهي أوهام كاذبة، إذ من طلب الجاه أيضاً لم يخل عن أذى في بعض الأحوال، فعلاج ذلك بالاحتمال والصبر أولى من علاجه بطلب الجاه، فإذن طلب المحل في القلوب لا رخصة فيه أصلاً، واليسير منه داع إلى الكثير، وضراوته أشد من ضراوة الخمر فليحترز من قليله وكثيره، وأما المال فهو ضروري في المعيشة أعني القليل منه، فإن كان كسوباً فإذا اكتسب حاجة يومه فينبغي أن يترك الكسب، كان بعضهم إذا اكتسب حبتين رفع سفطه وقام، هذا شرط الزهد؛ فإن جاوز ذلك إلى ما يكفيه أكثر من سنة فقد خرج عن حد ضعفاء الزهاد وأقويائهم جميعاً، وإن كانت له ضيعة ولم يكن له قوة يقين في التوكل فأمسك منها مقدار ما يكفي ريعه لسنة واحدة فلا يخرج بهذا القدر عن الزهد بشرط أن يتصدق بكل ما يفضل عن كفاية سنته، ولكن يكون من ضعفاء الزهاد، فإن شرط التوكل في الزهد كما شرطه أويس القرني رحمه الله، فلا يكون هذا من الزهاد. وقولنا: إنه خرج من حد الزهاد نعني به أن ما وعد للزاهدين في الدار الآخرة من المقامات المحمودة لا يناله، وإلا فاسم الزهد قد لا يفارقه بالإضافة إلى ما زهد فيه من الفضول والكثرة، وأمر المنفرد في جميع ذلك أخف من أمر المعيل، وقد قال أبو سليمان: لا ينبغي أن يرهق الرجل أهله إلى الزهد بل يدعوهم إليه، فإن أجابوا وإلا تركهم وفعل بنفسه ما شاء: معناه أن التضييق المشروط على الزاهد يخصه ولا يلزمه كل ذلك في عياله، نعم لا ينبغي أن يجيبهم أيضاً فيما يخرج عن حد الاعتدال، وليتعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ انصرف من بيت فاطمة رضوان الله عليها بسبب ستر

وقلبين، لأن ذلك من الزينة لا من الحاجة، فإذاً ما يضطر الإنسان إليه من جاه ومال ليس بمحذور، بل الزائد على الحاجة سم قاتل، والمقتصر على الضرورة دواء نافع، وما بينهما درجات متشابهة فما يقرب من الزيادة وإن لم يكن سماً قاتلاً فهو مضر، وما يقرب من الضرورة فهو وإن لم يكن دواء نافعاً لكنه قليل الضرر والسم محظور شربه، والدواء فرض تناوله، وما بينهما مشتبه أمره فمن احتاط فإنما يحتاط لنفسه، ومن تساهل فإنما يتساهل على نفسه، ومن استبرأ لدينه وترك ما يريبه إلى ما لا يريبه ورد نفسه إلى مضيق الضرورة فهو الآخذ بالحزم، وهو من الفرق الناجية لا محالة، والمقتصر على قدر الضرورة والمهم لا يجوز أن ينسب إلى الدنيا، بل ذلك القدر من الدنيا هو عين الدين لأنه شرط الدين والشرط من جملة المشروط. ويدل عليه ما روي أن إبراهيم الخليل عليه السلام أصابته حاجة فذهب إلى صديق له يستقرضه شيئاً فلم يقرضه، فرجع مفهوماً، فأوحى الله تعالى إليه: لو سألت خليلك لأعطاك، فقال: يا رب عرفت مقتك للدنيا فخفت أن أسألك منها شيئاً، فأوحى الله تعالى إليه: ليس الحاجة من الدنيا. فإذن قدر الحاجة من الدين، وما وراء ذلك وبال في الآخرة، وهو في الدنيا أيضاً كذلك يعرفه من يخبر أحوال الأغنياء وما عليهم من المحنة وجمعه وحفظه واحتمال الذل فيه، وغاية سعادته به أن يسلم لورثته فيأكلونه، وربما يكونون أعداء له، وقد يستعينون به على المعصية فيكون هو معيناً لهم عليها، ولذلك شبه جامع الدنيا ومتبع الشهوات بدود القز لا يزال ينسج على نفسه حياً ثم يروم الخروج فلا يجد مخلصاً فيموت ويهلك بسبب عمله الذي عمله بنفسه، فكذلك كل من اتبع شهوات الدنيا فإنما يحكم على قلبه بسلاسل تقيده بما يشتهيه حتى تتظاهر عليه السلاسل فيقيده المال والجاه والأهل والولد وشماتة الأعداء ومراءاة الأصدقاء وسائر حظوظ الدنيا، فلو خطر له أنه قد أخطأ فيه فيقصد الخروج من الدنيا لم يقدر عليه ورأى قلبه مقيداً بسلاسل وأغلال لا يقدر على قطعها، ولو ترك محبوباً من محابه باختياره كاد أن يكون قاتلاً لنفسه وساعياً في هلاكه إلى أن يفرق ملك الموت بينه وبين جميعها دفعة واحدة، فتبقى السلاسل في قلبه معلقة بالدنيا التي فاتته وخلفها فهي تجاذبه إلى الدنيا، ومخالب ملك الموت قد علقت بعروق قلبه تجذبه إلى الآخرة، فيكون أهون أحواله عند الموت أن يكون كشخص ينشر بالمنشار ويفصل أحد جانبيه عن الآخر بالمجاذبة من الجانبين، والذي ينشر بالمنشار إنما ينزل المؤلم ببدنه بذلك بطريق السراية من حيث أثره، فما ظنك بألم يتمكن أولاً من صميم القلب مخصوصاً به لا بطريق السراية إليه من غيره، فهذا أول عذاب يلقاه قبل ما يراه من حسرة فوت النزول في أعلى عليين وجوار رب العالمين، فبالنزوع إلى الدنيا يحجب عن لقاء الله تعالى، وعند الحجاب تتسلط عليه نار جهنم، إذ النار غير مسلطة إلا على محجوب. قال الله تعالى: " كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون، ثم إنهم لصالو الجحيم "، فرتب العذاب بالنار على ألم الحجاب، وألم الحجاب كاف من غير علاوة النار، فكيف إذا أضيفت العلاوة إليه؟ فنسأل الله تعالى أن يقرر في أسماعنا ما نفث في روع رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث قيل له: أحبب من أحببت فإنك مفارقه. وفي معنى ما ذكرناه من المثال قول الشاعر:

كدود كدود القز ينسج دائماً　　　　ويهلك غماً وسط ما هو ناسجه

ولما انكشف لأولياء الله تعالى أن العبد مهلك نفسه بأعماله واتباعه هوى نفسه إهلاك دود القز نفسه: رفضوا الدنيا بالكلية، حتى قال الحسن: رأيت سبعين بدرياً كانوا فيما أحل الله لهم أزهد منكم فيما حرم الله عليكم. وفي لفظ آخر: كانوا بالبلاء أشد فرحاً منكم بالخصب والرخاء لو رأيتموهم قلتم مجانين، ولو رأوا خياركم قالوا ما لهؤلاء من خلاق، ولو رأوا أشراركم قالوا ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب. وكان أحدهم يعرض لهم المال الحلال فلا يأخذه ويقول: أخاف أن يفسد على قلبي، فمن كان له قلب فهو لا محالة يخاف من فساده، والذين أمات حب الدنيا قلوبهم فقد أخبر الله عنهم إذ قال تعالى: " ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون ".

وقال عز وجل: " ولا تطمع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً ".

وقال تعالى: " فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا، ذلك مبلغهم من العلم "، فأحال ذلك كله على الغفلة وعدم العلم، ولذلك قال رجل لعيسى عليه السلام: احملني معك في سياحتك، فقال: أخرج مالك والحقني، فقال: لا أستطيع، فقال عيسى عليه السلام: بعجب يدخل الغني الجنة - أو قال بشدة.

وقال بعضهم: ما من يوم ذر شارقه إلا وأربعة أملاك ينادون في الآفاق بأربعة أصوات، ملكان بالمشرق وملكان بالمغرب، يقول أحدهم بالمشرق: يا باغي الخير هلم، ويا باغي الشر أقصر، ويقول الآخر: اللهم أعط منفقاً خلفاً وأعط ممسكاً تلفاً. ويقول اللذان بالمغرب، أحدهما: لدوا للموت وابنوا للخراب، ويقول الآخر: كلوا وتمتعوا لطول الحساب.

بيان علامات الزهد

اعلم أنه قد يظن أن تارك المال زاهد، وليس كذلك؛ فإن ترك المال وإظهار الخشونة سهل على من أحب المدح بالزهد، فكم من الرهابين من ردوا أنفسهم كل يوم إلى قدر يسير من الطعام ولازموا ديراً لا باب له، وإنما مسرة أحدهم معرفة الناس حاله ونظرهم إليه ومدحهم له، فذلك لا يدل على الزهد دلالة قاطعة، بل لا بد من الزهد في المال والجاه جميعاً حتى يكمل الزهد في جميع حظوظ النفس من الدنيا بل قد يدعي جماعة الزهد مع لبس الأصواف الفاخرة والثياب الرفيعة، كما قال الخواص في وصف المدعين إذ قال: وقوم ادعوا الزهد ولبسوا الفاخر من اللباس يموهون بذلك على الناس ليهدى إليهم مثل لباسهم، لئلا ينظر إليهم بالعين التي ينظر بها إلى الفقراء فيحتقروا فيعطوا كما تعطى المساكين، ويحتجون لنفوسهم بابتاع العلم وأنهم على السنة، وأن الأشياء داخلة إليهم وهم خارجون منها وإنما يأخذون بعلة غيرهم. هذا إذا طولبوا بالحقائق وألجئوا إلى المضايق، وكل هؤلاء أكلة الدنيا بالدين لم يعنوا بتصفية أسرارهم ولا بتهذيب أخلاق نفوسهم، فظهرت عليهم صفاتهم فغلبتهم فادعوها حالاً لهم، فهم مائلون إلى الدنيا متبعون للهوى. فهذا كله كلام الخواص رحمه الله؛ فإذن معرفة الزهد أمر مشكل، بل حال الزهد على الزاهد مشكل.

وينبغي أن يعول في باطنه على ثلاث علامات: العلامة الأولى: أن لا يفرح بموجود ولا يحزن على مفقود، كما قال تعالى: " لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم " بل ينبغي أن يكون بالضد من ذلك: وهو أن يحزن بوجود المال ويفرح بفقده.

العلامة الثانية: أن يستوي عنده ذامه ومادحه، فالأول علامة الزهد في المال والثاني علامة الزهد في الجاه.
العلامة الثالثة: ان يكون أنسه بالله تعالى والغالب على قلبه حلاوة الطاعة إذ لا يخلو القلب عن حلاوة المحبة إما محبة الله، وهما في القلب كالماء والهواء في القدح، فالماء إذا دخل خرج الهواء ولا يجتمعان، وكل من أنس بالله اشتغل به ولم يشتغل بغيره، ولذلك قيل لبعضهم: إلى ماذا أفضى بهم الزهد؟ فقال: إلى الأنس بالله؛ فأما الأنس بالدنيا وبالله فلا يجتمعان.

وقد قال أهل المعرفة: إذا تعلق الإيمان بظاهر القلب أحب الدنيا والآخرة جميعاً وعمل لهما، وإذا بطن الإيمان في سويداء القلب وباشره أبغض الدنيا فلم ينظر إليها ولم يعمل لها، ولهذا ورد في دعاء آدم عليه السلام: اللهم إني أسألك إيماناً يباشر قلبي. وقال أبو سليمان: من شغل بنفسه شغل عن الناس - وهذا مقام العاملين. ومن شغل بربه شغل عن نفسه - وهذا مقام العارفين. والزاهد لا بد وأن يكون في أحد هذين المقامين، ومقامه الأول أن يشغل نفسه بنفسه، وعند ذلك يستوي عنده المدح والذم والوجود والعدم، ولا يستدل بإمساكه قليلاً من المال على فقد زهده أصلاً.

قال ابن أبي الحواري: قلت لأبي سليمان: أكان داود الطائي زاهداً؟ قال: نعم. قلت: قد بلغني أنه ورث عن أبيه عشرين ديناراً فأنفقها في عشرين سنة، فكيف كان زاهداً وهو يمسك الدنانير؟ فقال: أردت منه أن يبلغ حقيقة الزهد، وأراد بالحقيقة لغاية، فإن الزهد ليس له غاية لكثرة صفات النفس. ولا يتم الزهد إلا بالزهد في جميعها فكل من ترك من الدنيا شيئاً مع القدرة عليه خوفاً على قلبه وعلى دينه فله مدخل في الزهد بقدر ما تركه، وآخره أن يترك كل ما سوى الله حتى لا يتوسد حجراً كما فعله المسيح عليه السلام، فنسأل الله تعالى أن يرزقنا من مباديه نصيباً وإن قل، فإن أمثالنا لا يستجرئ على الطمع في غاياته وإن كان قطع الرجاء عن فضل الله غير مأذون فيه، وإذا لاحظنا عجائب نعم الله تعالى علينا علمنا أن الله تعالى لا يتعاظمه شيء فلابعد في أن نعظم السؤال اعتماداً على الجود المجاوز لكل كمال.

فإذن علامة الزهد استواء الفقر والغنى والعز والذل والمدح والذم، وذلك لغلبة الأنس بالله. ويتفرع عن هذه العلامات علامات أخرى لا محالة: مثل أن يترك الدنيا ولا يبالي من أخذها.

وقيل: علامته أن يترك الدنيا كما هي فلا يقول أبني رباطاً أو أعمر مسجداً.

وقال يحيى لن معاذ: علامة الزهد السخاء بالموجود.

وقال ابن خفيف: علامته وجود الراحة في الخروج من الملك، وقال أيضاً: الزهد هو عزوف النفس عن الدنيا بلا تكلف.

وقال أبو سليمان: الصوف علم من أعلام الزهد فلا ينبغي أن يلبس صوفاً بثلاثة دراهم وفي قلبه رغبة خمسة دراهم.

وقال أحمد بن حنبل وسفيان رحمهما الله: علامة الزهد قصر الأمل.

وقال سري: لا يطيب عيش الزاهد إذا اشتغل عن نفسه. ولا يطيب عيش العارف إذا اشتغل بنفسه.

وقال النصراباذي: الزاهد غريب في الدنيا، والعارف غريب في الآخرة.

وقال يحيى بن معاذ: علامة الزهد ثلاث: عمل بلا علاقة، وقول بلا طمع، وعز بلا رياسة. وقال أيضاً: الزاهد لله يسعطك الخل والخردل، والعارف يشمك المسك والعنبر. وقال له رجل: متى أدخل حانوت التوكل وألبس رداء الزهد وأقعد مع الزاهدين؟ فقال: إذا صرت من رياضتك لنفسك في السر إلى حد لو قطع الله عنك الرزق ثلاثة أيام لم تضعف في نفسك، فأما ما لم تبلغ هذه الدرجة فجلوسك على بساط الزاهدين جهل ثم لا آمن عليك أن تفتضح وقال أيضاً: الدنيا كالعروس ومن يطلبها ماشطتها والزاهد فيها يسخم وجهها وينتف شعرها ويخرق ثوبها، والعارف يشتغل بالله تعالى ولا يلتفت إليها.

وقال السري: مارست كل شيء من أمر الزهد فنلت منه ما أريد إلا الزهد في الناس فإني لم أبلغه ولم أطقه.
وقال الفضيل رحمه الله: جعل الله الشر كله في بيت وجعل مفتاحه حب الدنيا، وجعل الخير كله في بيت وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا.

فهذا ما أردنا أن نذكره من حقيقة الزهد وأحكامه وإذا كان الزهد لا يتم إلا بالتوكل فلنشرع في بيانه إن شاء الله تعالى.